الفصل الثالث

عالمنا المعاصر

"القرن العشرون أصبح خلفنا بجرائمه وخرائبه وصحاريه، والقرن الحادى والعشرون إذا استمر فى هذه المسيرة نحو الفوضى فلن يكمل سنواته المائة". بهذه العبارة استهل "روجيه جارودى" كتابه L'avenir: Mode d'emploi الصادر عام ١٩٩٨م والذى نشرت دار الشروق القاهرية ترجمة له عام ١٩٩٩م بعنوان "كيف تصنع المستقبل"؟[٦٩]. وفى استهلال هذا الكتاب يقول "جارودى": ليست مهمتي أن أكون حارسا ليليا، ولكنى رأيت النار تنشب فى المنازل المجاورة وتدفعها الريح باتجاهك، وهكذا باعتباري قد عشت هذا القرن الملعون لم أشأ أن أموت دون أن أصرخ صرخة الإيقاظ: انتباه، افتحوا أعينكم، ينبغى أن تكون ثاقبة حتى ترى الأفق. وتلزم أيضا الأيادى لتقبض على طوق النجاة، علينا إدارة الظهر لليل، ألا ننتظر الظهيرة لنعتقد فى وجود الشمس. ومن الغريب أن كتاب "جارودى" هذا لم ينل حظا من الاحتفاء به فى الإعلام العربي أو الاهتمام الذى نالته كتب يمكن أن نصفها بأنها الأناجيل التى يبشر بها معظم الغرب لفهم وإدراك عالمنا المعاصر، مثل كتاب صراع الحضارات ــ إعادة صنع النظام العالمى ــ تأليف صامويل هنتنجتون[٧٠] أو كتاب فرانسيس فوكو ياما[٧١] المعنون نهاية التاريخ، أو كتاب توماس ل[٧٢] فريدمان المعنون "السيارة ليكساس وشجرة الزيتون، محاولة لفهم العولمة".

---

(٦٩) روجيه جارودي ــ كيف نصنع المستقبل؟ (ترجمة وتقديم: د. منى طلبه و د. أنور مغيث، ١٩٩٨م، ط٢ ــ ٢٠٠١ ــ دار الشروق ــ القاهرة ــ ٢٠٠١م.

(٧٠) صامويل هنتنجتون ــ صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي ــ

The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order –

الصادر عام ١٩٩٦ (ترجمة طلعت الشايب) في ١٩٩٨م، دار النشر (سطور) ــ القاهرة ــ ١٩٩٨م.

(٧١) فرانسيس فوكو ياما ــ نهاية التاريخ وخاتم البشر (ترجمة حسين أحمد أمين) ــ الطبعة الأولى ــ مركز الأهرام للترجمة والنشر ــ مؤسسة الأهرام ــ القاهرة ــ ١٩٩٣م.

(٧٢) توماس ل.فريد مان ــ السيارة ليكساس وشجرة الزيتون ــ محاولة لفهم العولمة ــ

The Lexus And the Olive Tree –

الصادر عام ١٩٩٩ ــ ترجمة (ليلي زيدان).

وهؤلاء المؤلفون أدنى قامة من "جارودى" بالمقاييس العالمية، ومؤلفاتهم مهما نفخ فيها المبشرون الجدد لا تصل إلى حجم مؤلفات "جارودى" سواء قبل إسلامه أو بعد إسلامه.

وإذا كان القول العربى القديم "لابد مما ليس منه بد" يعبر عن حكمة وواقعية، فإننا لا نبرح هذا الفصل قبل أن نتناول هذه الكتب بالعرض والتحليل والنقد؛ لأنها تمثل أناجيل معظم الغربيين المعاصرين فى رؤيتهم للعالم، وتمثل محاولتهم لفهم وفلسفة الواقع العالمى المعاصر، والإطار النظرى لهيمنتهم على البشر المعاصرين.

ومن باب الإنصاف أن نقول بأن أصواتا تتسم بالعدل والموضوعية صدرت فى الغرب وبخاصة فى ألمانيا وفرنسا لا تجنح جنوح الكتب التى أشرنا إليها فى توجيه الهيمنة الأمريكية بصفة خاصة والغرب بصفة عامة على العالم، وإدانة المسلمين والعرب والهجوم عليهم بصفة عامة.

ففى عام ١٩٩٦م صدر فى ألمانيا كتاب "فخ العولمة ــ الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية" ألفه عالمان ألمانيان، وصدرت تسع طبعات للكتاب فى عام واحد[٧٣].

فى الفصل الأول من هذا الكتاب يصور المؤلفان بالقلم ما تصوره الكاميرا التلفزيونية، بالإضافة للبلاغة وعمق الفكرة، والأبعاد الخفية التى تعجز الكاميرا عن تضمينه للصورة. يصور المؤلفان ندوة فى سبتمبر ١٩٩٥م فى فندق شديد الفخامة فى مدينة "سان فرانسيسكو" الأمريكية ينبهر زائروه حينما يستقلون المصعد ذا الجدران الزجاجية ليحلق بهم إلى المطعم المسمى "صالة التاج"، إذ يبدو لهم مظهر خلاب لذلك العالم البهيج الذى تحلم به مليارات البشر.

فى هذا الفندق الذى شهد أحداثا عالمية جساما وقف فى نهاية سبتمبر من عام ١٩٩٥م، واحد من القلة الحاضرة والذى كان هو نفسه قد حدد مسار التاريخ محييا نخبة من العالم، ولم يكن هذا الشخص سوى "ميخائيل جورباتشوف" فقد كان بعض

---

(٧٣) العنوان الأصلي للكتاب بالألمانية:

Die Globlalisierung Sfalle – Der Angriff auf Demokratie vnd Woklstand.

وترجمته سلسلة عالم المعرفة (الكويت ــ العدد ٢٣٨ في أكتوبر ١٩٩٨م هانس ــ بيتر مارتين وهرالد شومان (فخ العولمة ــ الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية) ترجمة: د. عدنان عباس علي ــ مراجعة وتقديم: أ.د رمزي زكي.

الأثرياء الأمريكيين قد تبرعوا بالمال اللازم ليؤسسوا له بالقرب من المكان معهداً، تعبيرا عن شكرهم وتقديرهم لشخصه، وهكذا فقد دعا جورباتشوف الآن خمسمائة من قادة العالم فى مجالات السياسة والمال والاقتصاد، وكذلك علماء من كل القارات، وكان المطلوب من هذا الجمع المختار بعناية، والذى وصفه آخر رئيس للإتحاد السوفيتى وحامل جائزة نوبل بأنه " ما هو إلا هيئة خبراء Braintrust جديدة. نعم كان المطلوب منه هو أن يبين معالم الطريق إلى القرن الحادى والعشرين، هذا الطريق الذى سيفضى إلى حضارة جديدة ".

ويمضى المؤلفان Hans-Peter Martin و Hararld Schumann فى وصف الصورة بأبعادها المتعددة لهذا المؤتمر فيقولان: "وهكذا تحتم أن يلتقى هنا قادة من المستوى العالمى حنكتهم التجربة، من أمثال جورج بوش وجورج شولتس ومارجريت تاتشر بقادة كوكبنا الأرضى الجدد من أمثال رئيس مؤسسة CNN، وهذا الرجل الذى دمج شركته بـ Time Warner ليجعل منهما أكبر اتحاد فى مجال المعلومات فى العالم أو بعملاق التجارة، ابن جنوب شرق آسيا واشنطن سى سيب Whshington Sy Cip. وقد أرادوا أن يقضوا للاثة أيام فى التفكير بعمق وتركيز، وفى حلقات عمل مصغرة معا إلى جانب أقطاب العولمة فى عالم الكمبيوتر والمال، وكذلك مع كهنة الاقتصاد الكبار وأساتذة الاقتصاد فى جامعات ستانفورد وهارفرد وأكسفورد، كما طلب القائمون على التجارة الحرة فى سنغافورة، وفى الصين أيضا، بالطبع، بأن يصغى المؤتمرون لصوتهم، لاسيما أن الموضوع له علاقة بمستقبل البشرية جمعاء، ولقد حاول رئيس وزراء مقاطعة سكسونيا أن يعبر عن وجهة النظر الألمانية فى هذه المناقشات.

ولم يكن واحد من هؤلاء قد جاء إلى هنا للثرثرة. كما لم يكن مسموحا لأحد بأن يخل بحرية التعبير. أما جمهور الصحفيين فقد تمكن المرء من الخلاص منه ومن فضوله بتكاليف لا يستهان بها[٧٤] وكانت القواعد الصارمة تجبر المشاركين على التخلى عن داء الخطابية والبلاغة البديعة، ولم يسمح للمتكلم بالتحدث والتمهيد لأحد الموضوعات بأكثر من خمس دقائق، أما المداخلة فلا يجوز أن تستغرق أكثر من دقيقتين فحسب.

---

(٧٤) فخ العولمة ــ مرجع سابق ــ ص ٢٣، ص ٢٤.

وكانت هناك سيدات أنيقات فى متوسط العمر ينبهن أصحاب المليارات والمنظرين والعلماء المشاركين فى المناقشات، كما لو كانوا مشاركين فى مسابقات السيارات من الدرجة الأولى، وبواسطة لوحات بينة للأنظار مكتوب عليها: تبقى من الزمن " دقيقة واحدة "، " للالون ثانية "، "انتهى".

ويختزل البرجماتيون هؤلاء فى مؤتمرهم هذا المستقبل إلى العددين٢:٨٠ وإلى مصطلح " Tittytainment " فحسب ما يقولون فإن ٢ بالمائة من السكان العاملين ستكفى فى القرن الحادى والعشرين للحفاظ على النشاط الاقتصادى الدولى، وأن خمس قوة العمل سيكفى لانتاج جميع السلع، ولسد حاجة الخدمات الرفيعة القيمة التى يحتاج إليها المجتمع العالمى، ولربما زادت النسبة بمقدار نقطة أو نقطتين، إذا ما أضفنا – كما يقول المناقشون – الورثة الأثرياء.

وفى المستقبل ستكون المسألة " إما أن تأكل أو تؤكل " To have lunch or be lunch"[٧٥].

بعد ذلك وجه المتناقشون ذوو المنازل الرفيعة فى هذا العالم، اهتمامهم فى الحلقة الدراسية عن "مستقبل العمالة" صوب أولئك الذين لن يحصلوا على فرصة للعمل، وكان الحاضرون فى هذه الحلقة على ثقة تامة من أنه سيكون من جملة هؤلاء العاطلين عن العمل عشرات الملايين من جميع أنحاء المعمورة الذين ينعمون الآن بمستواهم المعيشي الذى يقترب إلى حد ما، من المستوى الرفيع السائد الآن. ولكن كيف كان رد فعل الحاضرين على هذه الرؤية؟ لم يعترض أى منهم عليها ولم يروا فيها ما يستحق المناقشة.

بدلا من ذلك نال اهتمامهم العريض مصطلح "Tittytainment" الذى طرحه زبجنيو برجنيسكى (Zbigniew Brzezinski) للمناقشة، وكان هذا البولندى المولد لمدة أربع سنوات مستشارا للأمن القومى إبان إدارة الرئيس الأمريكى جيمى كارتر، أما الآن فإنه مهتم بالمسائل الجيو - ستراتيجية، وحسب ما يقوله برجنيسكى فإن Tittytainment مصطلح منحوت من الكلمتين " Entertainment " (تسلية) و" Tits " (حلمة)، الكلمة التى يستخدمها الأمريكيون للثدي دايما، ولا يفكر برجنيسكى هنا بالجنس طبعا، بل هو يستخدمه للإشارة إلى الحليب الذى يفيض عن ثدي

---

(٧٥) المرجع السابق – ص ٢٦ – ٢٨.

الأم المرضع، فبخليط من التسلية المخدرة والتغذية الكافية يمكن تهدئة خواطر سكان المعمورة المحيطين.

ويحلل العالم المختص بشئون المستقبل جون نايزبت " John Naisbitt " واقع المجتمعات الصناعية ويتوصل إلى نتيجة مفادها أن عصر المجتمعات الصناعية، وما أفرزه هذا العصر من مستوى معيشي مرتفع لجمهور المجتمع، ليس سوى " حدث عابر في التاريخ الاقتصادي ".

لقد ظن منظمو هذا المؤتمر أنهم على أبواب حضارة جديدة، إلا أن الحقيقة على خلاف ذلك، فالاتجاه الذي تومئ إليه هذه العقول الرائدة في مجال الصناعة والمال والعلم ينتقل بنا مباشرة إلى عصر ما قبل الحداثة، إذ لم يعد مجتمع {الثلثين الأثرياء والثلث الفقير}، والذي كان الأوربيون يخافون منه في الثمانينات هو الذي يقرر توزيع الثروة والمكانة الاجتماعية، بل سيحددهما في المستقبل، حسب ما يقول هؤلاء، النموذج العالمي الجديد القائم على صيغة ٢٠% (يعملون) و٨٠% (عاطلون عن العمل). لقد لاح في الأفق، حسب رأيهم، مجتمع الخمس، هذا المجتمع الذي سيتعين في ظله تهدئة خواطر العاطلين فيه عن العمل بما يسمونه "Tittytainment"، ولكن هل كل هذه التنبؤات مجرد إسراف ومغالاة؟.

في ألمانيا كان هناك في عام ١٩٩٦م أكثر من ستة ملايين يرغبون في العمل، إلا أنهم لا يجدون فرصة دائمة للعمل. وهذا العدد هو أعلى رقم يسجل منذ تأسيس جمهورية ألمانيا الاتحادية، وبعض الخبراء يذهبون إلى أبعد من هذا، إذ يتنبأ بأن " الصناعة ستسلك نفس الطريق الذي سلكته الزراعة "، فالإنتاج السلعي لن يوفر إلا لنسبة ضئيلة فقط من القوة العاملة فرصة لكسب الأجر والقوت.

ويختزل الاقتصاديون والسياسيون أسباب هذا التدهور إلى كلمة واحدة لا غير هي: العولمة، فحسب النظرية السائدة تحول العالم بفضل تكنولوجيا الاتصالات العالمية "High-Tech-Kommuniktion" وانخفاض تكاليف النقل وحرية التجارة الدولية إلى سوق واحد، الأمر الذي أدى إلى منافسة أشد وطأة وأكثر شمولية، ليس في سوق السلع فقط؛ بل في سوق العمل أيضا، وأن الشركات الألمانية قد صارت تفضل خلق فرص عمل في بلدان أخرى أدنى أجراً.

الأناجيل الجديدة:

أول هذه الأناجيل الغربية الجديدة التى تحاول صياغة عالمنا المعاصر كتاب نهاية التاريخ. وهذا الكتاب. بدأ بمحاضرة فى جامعة شيكاغو ثم مقالا فى مجلة " The National Interest" ثم كتابا بعد ذلك.

يبرر "فرانسيس فوكوياما" عنوان كتابه "نهاية التاريخ" بقوله أن الفيلسوف الألمانى "هيجل" ومن بعده "كارل ماركس" سبقاه إلى المعنى برغم اختلاف رؤية كل منهما واختلاف رؤيته للمراد الذى يقصده بنهاية التاريخ.

يقول المؤلف: "كان فى اعتقاد كل من "هيجل" و "ماركس" أن تطور المجتمعات البشرية ليس إلى ما لا نهاية، بل سيتوقف حين تصل البشرية إلى شكل من أشكال المجتمع يشبع احتياجاتها الأساسية والرئيسة، وهكذا افترض الاثنان أن للتاريخ نهاية: هى عند "هيجل" الدولة الليبرالية، وعند "ماركس" المجتمع الشيوعى، وليس معنى هذا أن تنتهى الدورة الطبيعية من الولادة والحياة والموت، وأن الأحداث الهامة سيتوقف وقوعها، وأن الصحف التى تنشرها ستحتجب عن الصدور، وإنما يعنى هذا أنه لن يكون ثمة مجال لمزيد من التقدم فى تطور المبادئ والأنظمة الأساسية، وذلك لأن كافة المسائل الكبيرة حقا قد حلت".

ثم يقول: "وبالرغم من أن هذا الكتاب "نهاية التاريخ" قد أخذ بعين الاعتبار الأحداث العالمية الأخيرة (نهاية القرن العشرين الميلادى) فإن موضوعه يعود بنا إلى سؤال قديم للغاية هو: هل يمكن الحديث عن تاريخ للبشرية واضح المعالم والأهداف فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين يتجه بالشطر الأعظم من البشرية صوب الديموقراطية الليبرالية؟.والإجابة عندى هى "نعم" لسببين مستقلين: الأول يتصل بالاقتصاد، والثانى يتصل بما يسمى الصراع من أجل نيل التقدير والاحترام"[٧٦].

وينتقى "فوكو ياما" نماذج وأمثلة تاريخية ويخلطها بمقادير معينة لتنتج فى النهاية الطبق الذى يطبخه أمامنا ويدعونا إلى تذوقه قائلا: "نواجه نحن الذين نعيش فى ظل

---

(٧٦) فرانسيس فوكو ياما ــ مرجع سابق ــ ص ٩.

ديموقراطيات ليبرالية مستقرة ذات تاريخ طويل، وضعا غير مادى، ففى زمن أجدادنا كان بوسع الكثيرين من المتعلقين أن يتنبأوا بمستقبل اشتراكى زاهر، تلغى فيه الملكية الخاصة والرأسمالية، وتنتهى فيه السياسة نفسها على نحو ما، أما اليوم فنحن على العكس منهم نجد صعوبة فى تخيل عالم أفضل بكثير من عالمنا، أو نتخيل مستقبلا ليس ديموقراطيا ورأسماليا فى أساسه ".

وفى ختام كتابه يكشف "فوكوياما" آخر أوراقه بقوله: "من المحتمل فى حالة استمرار سير الأحداث على النمط الذى سارت عليه العقود القليلة الماضية (من القرن العشرين الميلادى) أن تصبح فكرة التاريخ العام والغائى للبشر الذى يؤدى بنا إلى الديموقراطية الليبرالية أكثر قبولا لدى الناس.. "

ويصور "فوكو ياما"[٧٧] البشرية عندما يتحقق لها نهاية التاريخ كما يتصورها تصويرا بلاغيا فيقول: "لن تكون البشرية عندئذ ألف زهرة تتفتح فى صور وأشكال متباينة، وإنما ستكون بمثابة قافلة طويلة من عربات متشابهة، قد تتجه بعض هذه العربات صوب المدينة فى حركة حادة مفاجئة، وقد يعود بعضها إلى الصحراء، وقد تتعطل عجلات بعضها أثناء صعودها الجبل، وقد يهاجم الهنود الحمر عدة عربات فيشعلون فيها النار ويهجرها ركابها فى الطريق، وقد تذهل المعركة عددا من الركاب فيفروا كل بوجهتهم ويتجهوا مؤقتا فى الطريق الخطأ – وقد تتعب عربة أو عربتان من الرحلة فيقرر ركابها الإقامة الدائمة فى معسكرات فى نقط معينة من الطريق – وقد يجد آخرون طرقا بديلة إلى الطريق الرئيس، رغم أنهم سيكتشفون أنهم من أجل اجتياز السلسلة الأخيرة من الجبال عليهم أن يستخدموا نفس النفق الذى سيستخدمه غيرهم غير أن الغالبية العظمى من العربات ستمضى فى رحلتها البطيئة إلى المدينة، وسيصل معظمها إليها، والعربات متشابهة حتى مع اختلاف ألوانها والمواد المصنوعة منها، غير أن لكل منها عجلات أربع، وتجرها جميعا الخيول، وبداخل كل منها عائلة يساورها الأمل، وتدعو أن تكون الرحلة رحلة آمنة، ولن تؤخذ الاختلافات الظاهرة بين حالة العربات على أنها تعكس اختلافات دائمة

---

(٧٧) المرجع السابق – ص ٩٣، ص ٢٩٤.

وحتمية بين ركابها، وإنما سينظر إليها باعتبارها نتيجة لاختلاف مواقعها على طول الطريق. لقد ذهب "ألكسندر كوجيف" إلى أن التاريخ سيبرر فى النهاية عقلانيته، أى أن دخول عدد كبير من العربات إلى المدينة سيكون كفيلا بإقناع أى شخص منطقى التفكير يتأمل الموقف بأنه لم يكن ثمة غير رحلة واحدة، وهدف واحد للرحلة. ومن المشكوك فيه أن نكون قد بلغنا بالفعل هذه المرحلة، ذلك أنه بالرغم من الثورة الليبرالية عالمية النطاق التى حدثت مؤخرا، فإن الدلائل المتاحة لنا الآن على وجهة العربات المسافرة، ستظل — مؤقتا — غير قاطعة. وإلى أن تصل غالبية العربات إلى ذات المدينة، ويحول ركابها بأنظارهم إلى الأجواء الجديدة التى تحيط بهم، لن يكون بالوسع أن نعرف ما إذا كان الركاب سيشعرون بعدم الرضا، ومن ثم يرنون بأبصارهم صوب رحلة جديدة أبعد شوطا ".

يذكرنا هذا الجزم الصارم بنهاية التاريخ الذى يتصوره فوكو ياما بالجزم الصارم الذى سبقه إليه "ماركس" بوصف الاشتراكية التى كتبها بأنها الاشتراكية العلمية بمعنى أن ما سبقه من اجتهادات لم يكن علميا كما يذكرنا بالخيال الماركسى الذى تصور أن قمة التطور الاشتراكى هو تحقيق الشيوعية حيث تختفى سلطة الدولة، وحيث يزيد الانتاج بحيث يأخذ كل انسان ما يريد ويحقق كل حاجاته وحيث يعمل كل إنسان بما يقدر عليه، وقد تبين من مسيرة التاريخ أن ذلك محض خيال. ربما يكون فوكا ياما أغفل عن قصد مقولة "توينبى" عالم التاريخ عن سراب الخلود أو ربما لم يقرأها، لكن "هينتجتون" يبدأ بها الفصل الثانى عشر الأخير من كتابه صراع الحضارات قائلا: "ينتهى التاريخ مرة على الأقل فى تاريخ كل حضارة، وأحيانا أكثر من مرة، وعندما تنشأ دولة الحضارة العالمية يغشى يصير شعبها ما يطلق عليه "توينبى" (سراب الخلود) ويصبح متمنيا بأن ما لديه هوالشكل النهائى للمجتمع الإنساني[٧٨] يقول توماس ل. فريدمان[٧٩]: "العولمة ليست ظاهرة وليست مجرد اتجاه عابر. فاليوم أصبح النظام الدولى العلوى يشكل السياسات

---

(٧٨) صامويل هنتجتون — مرجع سابق — ص ٤٨٧.

(٧٩) توماس ل. فريدمان — مرجع سابق — ص ٢٩، ص ٣٤.

الداخلية والعلاقات الخارجية لكل دولة فى العالم تقريبا، ونحن بحاجة إلى أن نفهمه على هذا النحو". ويضيف قائلا: "عندما أتكلم عن "نظام الحرب الباردة" و"نظام العولمة" فماذا أعنى بذلك؟

أعنى ان الحرب الباردة، كنظام دولي، كان لها هيكلها القوى الخاص بها. التوازن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، وكانت للحرب الباردة قواعدها الخاصة بها، فى مجال العلاقات الخارجية، لا يمكن لأى من القوتين العظميين التعدى على مجال نفوذ الأخرى، وفى مجال الاقتصاد، لابد أن تركز البلدان الأقل تقدما جهودها على رعاية صناعتها الوطنية، وأن تركز الدول النامية على زيادة النمو عن طريق الصادرات، والدول الشيوعية على الاكتفاء الذاتى، والاقتصاديات الغربية على التجارة المقننة، وكانت الحرب الباردة أفكارها الخاصة السائدة: الصدام بين الشيوعية والرأسمالية، بالإضافة إلى حالة الانفراج فى العلاقات وعدم الانحياز والبروسترويكا، وكانت الحرب الباردة اتجاهاتها الديموجرافية الخاصة بها: تجميد حركة انتقال الأفراد من الشرق إلى الغرب بفعل الستار الحديدى إلى حد كبير، بيد أن الحركة من الجنوب إلى الشمال كانت فى تدفق أكثر اضطرادا، وكانت للحرب الباردة المنظور الخاص بها تجاه العالم، العالم عبارة عن مساحة مقسمة إلى المعسكر الشرقى، والمعسكر الغربى، والمعسكر المحايد، وكانت كل دولة من دول العالم ضمن واحد من هذه المعسكرات، وكانت الحرب الباردة التكنولوجيا الخاصة بها، كانت الأسلحة النووية والثورة الصناعية الثانية مسيطرتين، غير أن المطرقة والسندان ظلا بالنسبة للكثيرين من الناس فى البلدان النامية هما الأدانين الأكثر أهمية، وكانت للحرب الباردة مقياسها الخاص: ثقل قذف الصواريخ النووية، وأخيرا، كانت للحرب الباردة أسباب القلق الخاصة بها: الخراب النووى، وبالنظر إلى هذه العناصر مجتمعة نجد أن نظام الحرب الباردة ذا أثر فى السياسات الداخلية والعلاقات الخارجية لكل دولة من دول العالم تقريبا، إن نظام الحرب الباردة لم يشكل كل شىء ولكنه شكل كثيرا من الأشياء.

وحقبة العولمة اليوم التى حلت محل الحرب الباردة هى أيضا نظام دولى مماثل، ولكن له صفاته الفريدة الخاصة به.

أول كل شيء إن نظام العولمة، على عكس نظام الحرب الباردة، ليس نظاما جامدا، ولكنه عملية ديناميكية مستمرة، العولمة تنطوى على ذلك التكامل الصارم فى الأسواق، وفى الدول والأمم، وفى التكنولوجيات إلى درجة لم تحدث من قبل وبطريقة تمكن الأفراد والشركات والدول والأمم، من التجول حول العالم والوصول إلى مسافات أبعد وبصورة أسرع وأعمق وأرخص من أى وقت مضى، وبطريقة من شأنها أن تفرز أيضا ردة قوية من جانب أولئك الذين تعرضوا لمعاملة وحشية أو فاقم ركب ذلك النظام الجديد. إن الفكرة الدافعة وراء العولمة هى رأسمالية السوق الحرة، إذ كلما تركت قوى السوق هى التى تحكم وكلما فتحت أبواب اقتصادك أمام التجارة الحرة والمنافسة، أصبح اقتصادك أكثر كفاءة وازدهارا، والعولمة تعنى انتشار رأسمالية السوق الحرة إلى كل دولة تقريبا فى العالم، والعولمة أيضا لها مجموعة خاصة بها من القوانين الاقتصادية — قوانين تدور حول انفتاح اقتصاد كل دولة وإلغاء القوانين المنظمة له وخصخصته —.

والعولمة، على عكس نظام الحرب الباردة، لها ثقافتها الخاصة بها، وهذه الثقافة تجعلها تميل نحو إيجاد التجانس. كان هذا الاتجاه نحو التجانس الثقافى فى الحقب السابقة يحدث على نطاق إقليمى – الهيلينية فى الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط تحت حكم الإغريق، أو أتركة آسيا الوسطى وشمال أفريقيا وأوروبا والشرق الأوسط تحت الحكم العثمانى، أو التأثير الروسى فى شرق أوروبا ووسطها وأجزاء من آسيا الأوروبية فى ظل الاتحاد السوفيتى. العولمة، من الناحية الثقافية، هى إلى حد بعيد، ولكن ليس بصورة شاملة، انتشار للأمركة، بدءا من "البيج ماك" و "الأيماك" وانتهاء "بميكى ماوس"، على نطاق يشمل العالم.

والعولمة لها تكنولوجياتها المحددة الخاصة بها: دنيا الكمبيوتر، تصغير الأشياء إلى منمنمات، والرقميات، والاتصالات عن طريق الأقمار الصناعية، وبصريات الألياف والانترنت، وقد ساعدت هذه التكنولوجيات على إيجاد المنظور الذى يحدد العولمة فإذا كان المنظور الذى يحدد عالم الحرب الباردة هو "الانقسام"، فالمنظور الذى يحدد العولمة هو "التكامل"، كان الرمز لنظام الحرب الباردة هو السور الذى يقسم الجميع، أما رمز العولمة فهو شبكة الانترنت العالمية التى توحد بين الجميع، كانت الوثيقة التى تحدد نظام الحرب الباردة هى "المعاهدة"، أما الوثيقة التى تحدد نظام العولمة فهى "الصفقة".

وما أن تقفز دولة ما إلى نظام العولمة، حتى تبدأ الصفوة فيهـا فى إدمـاج منظـور التكامل هذا فى الداخل، وتحاول دائما تحديد موقع بلادها فى إطار عالمى.

ويختتم "فريدمان" مدخله للعولمة قائلا: "ولئن كان المقياس الذي تعرف به الحـرب الباردة هو الثقل ولاسيما ثقل قذف الصواريخ ـــ إلا أن المقياس الذي يعرف به نظـام العولمة هو السرعة، سرعة التجارة والسفر والاتصال والابتكار، فالحرب الباردة كانت تتعلق بمعادلة الكتلة والطاقة لأينشتاين (الطاقة = مربع الكتلة)، أما العولمة فتتعلق بقانون مور، الذي ينص على أن القوة الحاسبة لشذرات السيليكون سوف تتضاعف كل فتـرة تتفاوت بين ثمانية عشر شهرا وأربعة وعشرين شهرا، في الحرب الباردة، كان الـسؤال الأكثر ترديدا هو: "ما مدى ضخامة صاروخك؟"، أما فى العولمة، فالسؤال الأكثر ترديدا هو: "ما مدى سرعة المودم لديك؟ ".

ولئن كان الاقتصاديان اللذان يعرفان نظام الحرب الباردة هما كارل ماركس وجون مينارد كينز، وكان كل منهما يرغب بطريقته الخاصـة فى تـرويض الرأسمالية، فـإن الاقتصاديين اللذين يحددان نظام العولمة هما جوزيف شومبيتر وآندى جـروف المـدير التنفيذى الأول السابق لشركة إنتل، وهما اللذان يفضلان إطلاق العنان للرأسمالية، لقد عبر شومبيتر وزير المالية النمساوى السابق والأستاذ بكلية الأعمال فى جامعة هارفـارد عن وجهة نظره فى كتابه الكلاسيكى "الرأسمالية والاشتراكية والديموقراطية" ومؤداها أن جوهر الرأسمالية هو عملية "التدمير الخلاق" – أى دورة دائمة من تدمير المنتج او الخدمة القديمة أو الأقل كفاءة وإحلال الجديد والأكثر كفاءة محله، أما آندى جـروف فقـد استعار نظرة شومبيتر الثاقبة "لن يكتب البقاء إلا للمجنون بالاضطهاد" عنوانا لكتابه عن الحياة فى وادى السيليكون، وجعله من نواح عديدة نموذج العمل لرأسمالية العولمـة، وعمل جروف على انتشار وجهة النظر القائلة بأن الابتكارات المذهلة التى مـن شـأنها تغيير شكل الصناعة تحدث الآن بصورة أسرع وأسرع، إذ بفـضل تلـك الإنجـازات التكنولوجية الكبرى أصبحت الآن سرعة البرق هى السرعة التى من شأنها أن تجعل من أحدث اختراعاتك شيئا عفا عليه الزمن أو تحوله إلى مجرد سلعة، ولذلك، فإن من لديهم عقدة الاضطهاد وحدهم أولئك الذين يتلفتون دائما ـــ حولهم فى ريبة ـــ ليعرفوا مـن الذين يبتكرون شيئا جديدا وبالتالى سوف يدمرونهم ومن ثم فلابد أن يظلـوا متقـدمين

عليهم بخطوة، هؤلاء هم الذين سيكتب لهم البقاء، ولسوف يكتب الازدهار فى عصر العولمة لتلك الدول التى سترغب أكثر من غيرها فى السماح للرأسمالية بالقضاء فورا على الشركات المتعثرة ".

وكما كان شأن "فوكوياما" فى محاضرته التي تحولت إلى مقال ثم إلى كتاب كان مقال "صامويل هنتنجتون" عن صدام الحضارات فى المجلة الأمريكية الشهيرة الشئون الخارجية ثم تحول إلى كتاب.

يقول هنتنجتون فى الفصل الأول من كتابه "صراع الحضارات" إن الموضوع الرئيس لهذا الكتاب هو أن الثقافة والهويات الثقافية والتى هى على المستوى العام هويات حضارية، هى التى تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع فى عالم مابعد الحرب الباردة والأجزاء الخمسة من هذا الكتاب تفضل النتائج الطبيعية لهذا الافتراض الرئيس.

ويسرد المؤلف الأجزاء الخمسة لكتابه على نحو ما يراه هو، فيرى "أن التحديث مختلف عن التغريب ويرى أنه لأول مرة فى التاريخ يجد الثقافة الكونية متعددة الأقطاب ومتعددة الحضارات، وفى الجزء الثانى من الكتاب يقول إن ميزان القوى بين الحضارات يتغير، فالغرب يتدهور فى تأثيره النسبى، والحضارات الآسيوية تبسط قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية، والإسلام ينفجر سكانيا مع ما ينتج عن ذلك من عدم استقرار بالنسبة للدول الإسلامية وجيرانها. فى الجزء الثالث يقول المؤلف: "إن المجتمعات التى تشترك فى علاقات قربى ثقافية تتعاون معا، وأن الدول تتجمع حول دولة المركز أو دولة القيادة فى حضارتها، وفى الجزء الرابع يحدد المؤلف أن الغرب يتصارع بشكل متزايد مع الحضارات الأخرى وأخطرها مع الإسلام والصين، ويختتم المؤلف بالجزء الخامس قائلا: "إن بقاء الغرب يتوقف على الأمريكيين بتأكيدهم على الهوية الغربية. تسيطر على هنتنجتون فكرة صراع الحضارات لتفسير التحركات السياسية والاقتصادية فى الفترة من العقدين الأخيرين من القرن العشرين. وهو فى ذلك شبيه بالعالم النفسى "فرويد" الذى شرح التحليل النفسى على أساس الجنس، برغم الفارق بين ثقافة فرويد الرفيعة، وتخصصه العميق فى علم النفس، وبين سطحية هنتنجتون الثقافية وهشاشة نسقه التفسيرى لنظرية حتمية الصراع الحضارى.

الاستشهادات التى يستدل بها على حتمية الصراع الحضارى أشبه بالتلفيق لإلصاق

هم لمتهم برىء كما نشاهد فى المسرحيات الهزلية أو قصص الطرائف المبكية، فهو يستشهد بجزء مبتور لكاتب صحفى لا يملك جيشا يحركه ولا تنظيما شعبيا يحشده ويقول: امسكوا هذا دليلى على حتمية الصراع الحضارى بين الغرب والإسلام.

ولكن واجب الإنصاف يدفعنى إلى القول بأن كتاب "صدام الحضارات" هذا أكثر خطورة من الكتب المماثلة له؛ لأنه وضع موضع التنفيذ، فقد شن الأمريكيون وأذيالهم الحرب على أفغانستان ثم على العراق، حربا وصفها الرئيس الأمريكى بوش الثانى بأنها صليبية. كما يدفعنى واجب الإنصاف أيضا أن أقول إننى استفدت كثيرا من قراءة الكتاب وترسخ فى ذهنى أنه لا بديل عن الوحدة العربية والوحدة الإسلامية إلا أن يكون مصيرنا هو مصير الهنود الحمر.

وقد تصدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب نقدا منهجيا للأفكار الواردة به للكاتب الدكتور صلاح قنصوه فند فيه بنية التفكير الخاطئ فى مقولات هنتنجتون بشىء من الإسهاب والتفصيل.

يقول الدكتور صلاح قنصوه " الثقافة هى الكل المعقد المتشابك من أساليب الحياة الإنسانية والمادية، وغير المادية، أى الفكرية أو المعنوية أو الروحية التى ابتدرها الإنسان، واكتسبها، ولا يزال يكتسبها بوصفه عضوا فى جماعة او مجتمع، فى مرحلة معينة من تاريخ تطوره، تقدما كان أو تدهورا. وللثقافة جانبان، روحى أو غير مادى، وهو الذى يضم القيم والمعايير والنظم والاعتقادات والتقاليد، والمادى وهو الذى يمثل التجسيد المحسوس للجانب المعنوى فيما يصاغ من أدوات ومنشآت وهو الذى نسميه حضارة إذا ماكانت الجماعة المعنية مستقرة.

وتتفاعل ثقافات المجتمعات المختلفة على كلا الجانبين على الوجه الذى تنشأ فيه ثقافات جديدة تتعاقب على كل مجتمع أو أمة؛ لأن الثقافة ليست ثابتة جامدة. فليس لكل مجتمع أو أمة ثقافة واحدة لا تتغير على مر العصور.

وكانت الحضارات، أى الجانب المادى من الثقافة، جزءا لصيقا بها بحيث كان من الممكن أو اليسير أن تتمايز الحضارات بتمايز المجتمعات فى العصور القديمة والوسطى، ولكن عندما توسع التبادل بين المجتمعات فى الجانب المادى من الثقافة، أى الحضارة،

ازداد استقلال الحضارة عن الجانب الروحى الذى ظل فيه التبادل بين المجتمعات محدودا وأصبحت الثقافة عنوانا يختص بهذا الجانب الروحى أو المعنوى، وعندئذ اشتركت ثقافات متعددة فى حضارة واحدة بعينها بعد أن كانت الحضارة فى القديم جزءا من الثقافة.

ومن ثم انفصلت الحضارة أو كادت تستقل بنفسها عن الأصول الثقافية التى نشأت فيها، وذلك لسهولة التبادل المادى بين المجتمعات المختلفة، وصعوبة ذلك فى الجانب الروحى الذى استقل أخيرا بمفهوم الثقافة.

ويعنى هذا أن المجتمعات والأمم المتباينة يمكن أن تشارك فى حضارة عالمية واحدة بقدر سعة الانفتاح والتبادل مع سائر العالم، مع احتفاظها بثقافاتها الخاصة.

وكان لسيادة النظام الرأسمالى فى الغرب الأثر المعجل فى تجانس الحضارة العالمية، ولم يكن ذلك لفضيلة خاصة بالغرب، بل لطبيعة الرأسمالية نفسها التى ازدهرت فى الغرب لعوامل موضوعية ساهمت فيها الحضارة العربية الإسلامية مساهمة الحافز والتحدى معا لأسباب مادية لا علاقة لها بالاعتبارات الدينية او الثقافية بوجه عام، ومعظم السمات التى ذكرها "هنتنجتون" مميزة للغرب، هى سمات أو نتائج مباشرة للنظام الرأسمالى، الذى أسقط منها مؤلفنا عمدا، وعن سوء طوية، السمة العالمية، الرأسمالية قائمة على المنافسة بكل درجاتها وأنواعها، داخل حدود الوطن الواحد أو خارجه، وهى فى حاجة إلى مواد خام لا توجد إلا فى أماكن أخرى من العالم، كما تتطلب أسواقا واسعة لتوزيع بضائعها، كما تفضل أعدادا هائلة من الأيدى العاملة الرخيصة التى لا تتوافر داخل حدود بلد واحد، ومن هنا كان الاستعمال الذى فتح الحدود عنوة بين أقطار العالم، وأشعل الثورات والحروب العالمية.

ومهما يكن من أمر الهيمنة هنا أو التبعية هناك، والتبادل السلمى، أو الصدام الدموى، فإن قواعد اللعبة الجديدة فرضت نفسها رضا أم كرها على الجميع، مغلوبين أو منتصرين. ولا يعنى الانتماء لهذه الحضارة الواحدة، الألفة والمودة بين المنتسبين لها، فهى ليست مذهبا أو عقيدة، فقد حارب الألمان أولاد عمومتهم من الأنجلوساكسون كما دخلت إيطاليا اللاتينية الكاثوليكية الحرب مع ألمانيا ضد فرنسا اللاتينية الكاثوليكية.

وهذه الحضارة السائدة ليست ثقافة كما يحاول أن يخدعنا " هنتنجتون " وإلا لكانت عقيدة ومبدأ للتبشير والنشر بين من لا يؤمنون بها إذا أتيح لأصحابها القوة والسلاح، فعندما دخل الإنجليز مصر أغلقوا مجلس شورى النواب، والمصانع، وحجموا التعليم، وكمموا الأفواه، وأنكروا الفردية وحرية الرأى، وهى كلها سمات الثقافة الغربية كما يقول صاحبنا: فالأمر كله مرهون إذن بالمصالح الاقتصادية والسياسية وفقا لقواعد اللعبة الحضارية الجديدة التى نرضخ لها جميعا. وليس الصراع ثقافيا، بل هو صراع بين مستويات مختلفة من النمو فالعناصر الثقافية أغطية للرأس لا تستر حقيقة الأوضاع والجميع، ونحن منهم، مدعوون للمشاركة فى الحضارة العالمية الواحدة القائمة بالفعل، على تفاوت فى المستويات، عن طريق المنافسة، وفقا لشروط اللعبة ومعاييرها.

غير أننا لا نستطيع إنكار بروز النزاعات الثقافية على سطح اللحظة التاريخية الراهنة. وواجبنا العلمى، بل والخلقى أيضا أن نبحث عن أسباب ذلك، وليس كما صنع "هنتنجتون" أن نجعلها هى نفسها السبب فى تشكيل النظام العالمى الجديد.

فعندما يلح قول موجز، كبرشامة سهلة التناول، على السمع والبصر، فإنه ما يلبث أن يفرض نفسه تفسيرا مبذولا للجميع، ويدفع عنا مشقة البحث والتمحيص، ويصبح موضوعا للتعقيبات والتأكيدات، وخاصة إذا ما جاء على لسان شخصية بارزة فى الغرب مثل " هنتنجتون " فيرقى إلى مستوى الحكمة والمسلمات، لأنه يصادف هوى فى نفوسنا.

ولكن ألم يكن صراع الحضارات أو الثقافات المسوغ الدعائى لتعبئة وقود الحرب من الشباب لخوض القتال فى العصور القديمة وكذلك الحديثة، التى تعد النظم الفاشية مثالا صارخا له؟، أولم تكن قوى الحلفاء المقاومة للفاشية أكثر حماسا فى استخدام الشعارات الثقافية بمضامين مختلفة؟ هل كان واقع الصدام ثقافية، أم كان لأسباب مادية أخرى؟.

إن بيانات رجال السياسة أو القادة فى كل مراحل التاريخ مثال بارز على الخلط المتعمد بين الشعار والواقع، ولا نعرف زعيما أو قائدا عسكريا صرح بأهدافه ومصالحه الحقيقية عند تعبئته للجماهير، ودفعها إلى سلخانة الحرب.

فالبيان السياسى أو الخطاب التعبوى، إن صح ذلك التعبير، من بين كل البيانات أو الخطابات الأخرى، هو الذى يستمد عباراته من معجم الأخلاق، أو الدين، أو العرق أو

غيرها من عناصر الثقافة بمعناها اللامادى أو الروحى. ودراسة التاريخ تكشف لنا عن هذه المفارقة التى تنتمى إلى الكوميديا السوداء، فكل آليات التبرير السياسى مستمدة من تلك العناصر الثقافية. كالدين، والقومية، واللغة، والقيم، والأعراف، والتقاليد ونحوها.

والسياسة هى طرق إدارة الصراع، ومن أهم أساليبها فى هذا الشأن، تفسير الصراع بتلك العناصر الثقافية التى ترد كثيرا فى الخطاب السياسى، وذلك للاستهلاك المحلى أو الخارجى على السواء.

ولقد انتشرت النزعة الأصولية الآن، ليس بوصفها اكتشافا علميا لسر الصراع بين الدول، فقد ابتذلت منذ زمان قديم من كثرة الاستخدام. ولكن عقب سقوط كثير من المسلمات العصرية، وفشل النظم القائمة فى ستر عوراتها. فكان لابد فى غمرة التخبط أو الفراغ التنظيرى، وضرورة الانخراط فى المزاحمة الدموية، والسوق العالمية الحرة كان لابد من التفتيش فى الدفاتر القديمة، شأن التاجر المفلس، عن نظرية عتيقة هى الصدام الحضارى أو الثقافى، حيث يختار كل منا ما يلائمه من أصول، أو أسلاف، أو آلهة حارسة.. بيد أن الأصولية الغربية التى يزعمها ويهيب بها "هنتنجتون" تتخذ موقعا يمتاز امتيازا بينا عن الأصولية الإسلامية أو الشرقية بوجه عام.

فالأصولية الغربية تنتقى سماتها الفارقة مما يقوم فى الحاضر الآن، ثم تستدير إلى الماضى البعيد لإيجاده أو اصطناع جذور قديمة لتفسير حاضرها اليوم.

أما النزعة الأصولية لدينا فإنها تجعل من الحاضر القائم انحرافا وتدهورا عن أصل قديم جدا، كان يمثل فى نظرها العصر الذهبى لهذه الحضارة، وينبغى إذن استعادته، ليخلص لنا بريئا من كل شائبة، دخيلة، خارجية.

وفى هذا الاختلاف بين أصولية "هنتنجتون" والأصولية الإسلامية أو الشرقية، ترجح كفة الأصولية الغربية المزعومة فى ميزان القوى؛ لأنها تحيا عصرها الذهبى فى حاضرها اليوم الذى تحاول تبريره بالتاريخ القديم، وعلم الآثار، بينما ينشغل الأصوليون الإسلاميون بالتنقيب فى الماضى البعيد عن عصرهم الذهبى، تاركين وهم فى غمرة انشغالهم، مهمة قيادة العالم لمن يملكونه فعلا، ومقدمين لهم العون السخى بضربه مخالفيهم من مواطنيهم، وتخريب اقتصاد بلدانهم بكل همة وحماس.

ولأن "هنتنجتون" مخطط استراتيجي لإعادة صنع النظام العالمي، فقد التقط من الأصوليين الإسلاميين طرف الخيط، ومثل دور التلميذ عليهم، وطبق دعاواهم بمهارة محترف سياسي، ومفكر، براجماتي لا يعنيه من كل ذلك إلا ما تثمره الفكرة من نتائج عملية نافعة لاحتكارات الرأسمالية الأمريكية، وهي فكرة قدمها له الأصوليون على طبق من فضة، أو أثمن من ذلك كثيرا.

فأولا، تخدم فكرته عن صدام الحضارات في تشجيع الأصوليين الذين تطوعوا لضرب اقتصاد بلادهم أو إضعافه في وجه المنافسة الخارجية الغربية.

وثانيا، تؤدي إلى تغذية الأصولية الإسلامية، والتأكيد على صحتها لتكون ذريعة مقبولة للصدام الذي يعرف " هنتنجتون " نتيجته المظفرة سلفا.

وثالثا، تفيد كدعوة صالحة لتعبئة العدد الأكبر من جماهير الدول الأوروبية والأمريكية، وإثارة حماسهم في الانخراط في حروب كولونيالية جديدة، بنفس الشعارات والمبررات التي استخدمت في الحروب الصليبية في العصور الوسطى، ولتكون بديلا جديدا عن العدو القديم، امبراطورية الشر الشيوعية، الذي انتهى مفعوله كملاط أو غراء يضم جماهير البسطة المقهورين في بلدان الغرب، إلى موقف موحد يخدم مصالح أصحاب الاحتكارات.

فما يصنعه "هنتنجتون" في نهاية الأمر، أو ما يقدمه هو "خريطة" جديدة لإدارة الأزمات التي تنتج عن عوامل الصراع الحقيقية، ويضع "جدول أعماله" يغير فيه من مواقع الأولويات للأوضاع الاقتصادية والسياسية الفعلية، وهو ما من شأنه أن يساهم مساهمة نشطة في تزييف وعي المواطنين في مختلف بلدان العالم. ويفضي ذلك جميعا إلى صرف الانتباه عما يجري في الواقع العالمي بحيث يتم تحريك الأطراف المختلفة بكفاءة واقتدار، فخدمة مصالح بعينها، بعيدة عن مصالح أوسع فئات الجماهير سواء في الشرق أو الغرب.

فالكتاب كله تذكير ملح على واجب المواطنين في التشبث بالخصومة بين البشر، حتى يفرغ أصحاب المصالح لشئونهم وإدارة العالم الممزق. ونظريته في "الصدام الحضاري" ليست أكثر من ثوب قشيب لفكرة أو ممارسة عتيقة جدا هي "فرق تسد".

وهى ثوب قشيب؛ لأنه يزدان برقع زاهية الألوان، يطالعها القارئ فى أدلته وأمثلته التي يقتطعها من هنا وهناك دون منطق متجانس موحد، فإلى جانب الدين مفسرا للصدام الحضارى، يدهشنا بتفسيره، فى مواضع أخرى كثيرة من الكتاب، للفتوح والغـزوات بتزايد السكان، فقد أدى التزايد السكانى فى أوروبا فى القرن الحادى عشر إلى اشـتعال الحروب الصليبية، ومن ثم يحذرنا الكتاب من " النتوء " السكانى للمسلمين الذين يزداد عددهم بالنسبة للمسيحيين، ولقد تمنيت أن يكون تفسيره صحيحا، فلم يكن لإسرائيل أن تظل على قيد الوجود يوما واحدا مع الزيادة الفادحة لمن جاورها مـن العـرب أو المسلمين

غير أن ما نخشاه حقيقة من تسلط أو إغراء لنظرية صدام الحضارات هو ما ذكـره "إرنست ناجل" عن "التنبؤ المحقق لنفسه"، وهو الذى يتألف من تنبؤات لا تصدق على الوقائع الفعلية، فى الوقت الذى تصاغ فيه هذه التنبؤات، غير أنها تغدو صادقة بـسبب الأفعال التى تتخذ كنتيجة مترتبة على " الاعتقاد " بصحة تلك التنبؤات، ويضرب لذلك مثلا: فمع أن "بنك الولايات المتحدة "، وهو بنك خاص برغم اسمه، لم يكن فى ضـائقة مالية جديدة عام ١٩٢٨م، إلا أن الكثير من أصحاب الودائع "ظنوا" أنه يعانى ضائقة لا مخرج منها، وقد يفلس سريعا، وقد أدى ذلك "الاعتقاد" إلى سحبهم لودائعهم مما دفـع البنك إلى الإفلاس فى الواقع.

وعلى أية حال فإن العدو الحقيقى لـ"هنتنجتون" وأصحاب المـصالح الحقيقيـة فى أمريكا هو السلام، فقد كان من المتوقع أن يختفى منظرنا بـسقوط الاتحـاد الـسوفيتى ليستمتع بالسلام والرخاء، ولكنه يوافق على ما قاله مستشار "جورباتشوف": "لحن نقوم بأمر مروع لكم، فنحن نحرمكم من عدو " وبعبارته أن "الحماية من الاتحاد الـسوفيتى كانت السلعة التى تروجها الولايات المتحدة"،ولابد إذن من سـلعة أخـرى مماثلـة فى جودتها، وهو دائما يفكر فى الحرب والصدام مع عدو؛ لأنهما يحملان على التماسك بين مختلف المواطنين، ولكنه يغفل عامدا أن ذلك أمر موقوت محدود لتعود الأمور إلى طبيعتها فى حال السلام، ولا يمكن أن تظل الشعوب في حالة من التعبئة والاستنفار. وبالتالي فهذه الفترة لا تصلح محددا للمصلحة القومية أو الهوية، وإلا لما كانت الحاجة إلى أحـزاب،

وخلافات وطنية، واجتهادات متباينة.

ومهما يكن من أمر، فرؤية "هنتنجتون" وخططه ينتسبان إلى مرجعية فكرية لما قبل الحرب العالمية الثانية، وهى ليست المرجعية الليبرالية، بل الشمولية التي تسعى إلى التوحيد والاحتشاد عن طريق القمع والتقييد فى الداخل، لفرض سيطرة مصالح بعينها على الخارج، الذى يعاد صياغته وتشكيله وفقا لوصفات جربها رجال الحكم والسياسة بنجاح منذ العصور القديمة، "وهي صفة" أو نظرية الصدام بين الحضارات"(٨٠).

هكذا فند الدكتور صلاح قنصوه مقولات هنتنجتون، وبين فسادها.

وإذا تتبعنا ما أورده "هنتنجتون" من نصوص كتابه صراع الحضارات نجد ظاهرة التلفيق فى دمغ الإسلام بالعدوانية واضحة ومتكررة، فتحت عنوان " الحدود الدموية للإسلام " يقول "هنتنجتون" "الصراعات الطائفية وحروب خطوط التقسيم الحضارى هى مادة التاريخ وبحسبه واحدة نجد أن ٣٢ صراعا إثنيا حدثت خلال الحرب الباردة تتضمن حروب خطوط تقسيم بين العرب والإسرائيليين، والهنود والباكستانيين، والسودانيين المسلمين والمسيحيين، والسريلانكيين البوذيين والتاميل، واللبنانيين الشيعة والمارون ".

ثم يقول "هنتنجتون " بالحرف الواحد: "وحيثما ينظر المرء على امتداد حدود الاسلام، يجد أن المسلمين لهم مشكلات فى العيش مع جيرانهم بسلام.

ومن الطبيعي أن يبرز سؤال عما إذا كان هذا النمط من الصراع فى أواخر القرن العشرين بين الجماعات المسلمة وغير المسلمة، يماثل بنفس الدرجة نمط العلاقات بين الجماعات التي تنتمي إلى حضارات أخرى، الحقيقة أنه ليس كذلك، المسلمون يشكلون خمس سكان العالم، ولكنهم فى التسعينات كانوا أكثر تورطا فى العنف ما بين الجماعات عن أي شعب في حضارة أخرى والدليل على ذلك شديد الوضوح:

١- شارك المسلمون فى ٢٦ صراعا من إجمالى ٥٠ صراع عرقي ــ سياسي في١٩٩٣ــ ١٩٩٤م، قام بتحليلها بعمق " ت. روبرت جور "(جدول رقم ١)(٨١):

---

(٨٠) د. صلاح قنصوه ــ مقدمة كتاب هنتنجتون ــ ص ٩ إلى ص ٢٧.

(٨١) هنتنجتون ــ صدام الحضارات ــ مرجع سابق ــ ص ٤١٦ ــ ص٤٢٠ .

عشرون من هذه الصراعات كانت بين جماعات تنتمى لحضارات مختلفة، وعشرون بين مسلمين وغير مسلمين، باختصار، كانت هناك صراعات بين مسلمين وأطراف من حضارات أخرى، ثلاثة أمثال ما كان بين كل الحضارات غير الإسلامية، كما كانت الصراعات داخل الإسلام نفسه كثيرة، وأكثر مما كانت داخل أية حضارة أخرى، بما في ذلك الصراعات القبلية فى إفريقيا.

الغرب، على العكس من الاسلام، لم يتورط إلا فى صراعين بين حضارات مختلفة وصراعين داخل حضارات بعينها.

الصراعات التى كان المسلمون طرفا فيها، كانت دائما كثيرة الضحايا، الحروب الست التى يقدر فيها " جور " القتلى بـ ٢٠٠٠٠٠ كان ثلاث منها بين مسلمين وغير مسلمين " الصومال – أكراد العراق " وواحدة فقط لم يكن بها مسلمون " أنجولا "

٢– حددت نيويورك تايمز ٤٨ موقعا كان يدور بها ٥٩ صراعا عرقيا فى سنة ١٩٩٣م، فى نصف عدد هذه المواقع كان المسلمون يتصارعون مع مسلمين آخرين أو مع غير مسلمين فى ٣١ من هذه الصراعات كانت الأطراف جماعات من حضارات مختلفة، وبالتوازي مع بيانات "جور" كان للثا هذه الصراعات "أي ٢١" داخل الحضارات بين مسلمين وآخرين (جدول رقم ٢).

٣– إلا أن "روث ليجر سيفارد" يرصد فى تحليل آخر ٢٩ حربا (صراعات نتج عنها ١٠٠٠ قتيل أو أكثر فى العالم) فى سنة ١٩٩٢م، ٩ من الـ١٢ صراعا داخل الحضارات كانت بين مسلمين وغير مسلمين ومرة أخرى كان المسلمون يخوضون حروبا أكثر من أية جماعة فى أية حضارة أخرى.

جدول (١)

الصراعات الإثنية / السياسية (١٩٩٣ ــ ١٩٩٤)

	مع حضارات أخرى	داخل الحضارة	الإجمالي
الإسلام	١١	١٥	٢٦
حضارات أخرى	*١٩	٥	٢٤
الإجمالي	٣٠	٢٠	٥٠

* من بينها١٠ صراعات قبلية في إفريقيا.

المصدر: Ted Robert Gurr. "Peoples Against States: Ethnopolitical Conflict and Changing World System", International Studies Quarterly, Vol. 38 (Sept. 1994) pp. 347-378

وقد استخدمت تصنيف "جور" للصراعات باستثناء تغيير الصراع الصيني التبتي الذي يصنفه كصراع غير حضاري واعتباره من ضمن الصراعات داخل الحضارة الواحدة حيث، من الواضح أنه صراع بين صينين هان كونفوشيسين وتبت لاما بوذيين.

جدول (٢)

الصراعات الإثنية : ١٩٩٣م

	مع حضارات أخرى	داخل نفس الحضارة	الإجمالي
الإسلام	٧	٢١	٢٨
حضارات أخرى	*٢١	١٠	٣١
الإجمالي	٢٨	٣١	٥٩

* من بينها١٠ صراعات قبلية في إفريقيا.

المصدر: New York Times Feb. 7, 1993 pp. 1, 14.

وهكذا تقدم ثلاث تصنيفات من البيانات نفس الاستنتاج: في بداية التسعينيات كان

المسلمون مشتركين في أعمال عنف داخل جماعاتهم أكثر من غيرهم، وما بين ثلثي إلى ثلاثة أرباع عدد الصراعات بين الحضارات كان بين مسلمين وغير مسلمين. حدود الإسلام دموية.. وكذلك الأحشاء(*).

التوجه الإسلامي نحو الصراع العنيف يساعد عليه أيضاً درجة تسلح المجتمعات الإسلامية.في الثمانينات كان لدى الدول الإسلامية معدلات قوة (نسبة عدد الأفراد العسكريين لكل ألف من السكان) ومؤشرات دالة على جهد عسكري (معدل القوة المتناسبة مع ثورة الدولة) أكبر بكثير مما لدى الدول الأخرى. وعلى العكس من ذلك، كانت معدلات "القوة ومؤشرات الجهد العسكري لدى الدول الإسلامية أقل مما لدى الدول الأخرى. معدلات ومؤشرات القوة في الدول الإسلامية كانت تقريباً ضعف ما لدى الدول المسيحية (جدول ٣). ويستنتج "جيمس بايني": "من الواضح جداً أن هناك صلة ما بين الإسلام وسياسة الاستعداد العسكري".

جدول (٣)

العسكرية في الدول المسيحية والإسلامية

	متوسط نسبة القوة	متوسط الجهد العسكري
الدول الإسلامية (٢٥)	١١ر٨	١٧ر٧
الدول الأخرى (١١٢)	٧ر١	١٢ر٣
الدول المسيحية (٥٧)	٥ر٨	٨ر٢
الدول الأخرى (٨٠)	٩ر٥	١٦ر٩

المصدر: James I.Payne, Why Nations Arm. (Oxford, Basil Blacckwell, 1989) pp. 125, 138-139

(*) لم تلق اية عبارة أخرى في مقال "فورن افيرز" نقداً قدر ما لقيت عبارة "حدود الإسلام دموية". وقد قدمت هذا الحكم استناداً إلى عملية مسح عرضي للصراع بين الحضارات. وقد ألبت الدليل الكمي من جميع المصادر الزيهة صحته بشكل حاسم.

الدول الإسلامية أيضاً لديها ميل شديد للجوء إلى العنف في الأزمات الدولية، وقد استخدمت ذلك لحل ٧٦ من مجمل ١٤٢ أزمة كانت طرفاً فيها بين عامي ١٩٢٨، و ١٩٧٩، وفي ٢٥ حالة كان العنف هو الوسيلة الرئيسة للتعامل مع الأزمة، وفي ٥١ حالة استخدمت العنف إلى جانب وسائل أخرى.

وعندما كانت تستخدم العنف، كانت الدول الإسلامية تستخدمه بأعلى درجاته، كما لجأت إلى حروب كاملة في ٤١% من الحالات التي استخدمته فيها، واشتركت في صدامات في ٣٨% من الحالات، وبينما لجأت الدول الإسلامية إلى العنف في ٥ر٥٣% من أزماتها، لم تستخدم المملكة المتحدة العنف سوى في ٥ر١١% والولايات المتحدة في ٩ر١٧% والاتحاد السوفيتي في ٥ر٢٥% من الأزمات التي كانوا أطرافاً فيها.

ومن بين القوى الرئيسة لم يتفوق على الدول الإسلامية في الميل إلى العنف سوى الصين التي استخدمته في ٩ر٧٦% من أزماتها. الميل الإسلامي إلى القتال والعنف من حقائق أواخر القرن العشرين التي لا يستطيع أن ينكرها المسلمون أو غير المسلمين".

وفيما بين صفحتى ٥٠٦، ٥١٢ من هذا الكتاب يضع المؤلف تصورا خياليا لحرب نووية سببها المسلمون ووقودها من المسلمين.

وجملة القول أن هذا الكتاب هو رأس الأناجيل الجديدة التى يؤمن بها الفكر الأمريكي المعاصر ضد الإسلام والمسلمين.

والمقولات الأساسية بهذا الكتاب هى الطعام اليومى الذى تبثه وسائل الإعلام والثقافة فى الأوساط الصهيونية الأمريكية عالميا، وما يتحقق على أرض الواقع فى ذبح المسلمين بفلسطين وأفغانستان والعراق حتى الآن صدى لهذا التصور.

لقد صدرت هذه الكتب وغيرها قبل تفجيرات الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م وبعد هذه التفجيرات التى أحاطت بها علامات استفهام كبيرة لم يجب المسؤلون الأمريكيون عنها حتى الآن، ظهرت وثيقة أمريكية فى فبراير ٢٠٠٢م بعنوان ما الذى نحارب من أجله الآن؟ موقعا عليها من ستين مثقفا أمريكيا منهم فرنسيس فوكو ياما وصامويل هنتنجتون.

ولقد عبرت هذه الوثيقة عن الروح العدائية للإسلام والمسلمين، واستندت إلى انتقاء

ما يبرر القتل الأمريكى للشعوب الإسلامية، واستبعدت نصوص التسامح التى جاء بها الإسلام والوقائع التاريخية التى تؤكد ذلك التسامح.

ولقد تصدى لكشف هذه الوثيقة ونقدها والرد عليها الدكتور فوزى فهمى[٨٢] بثبات علمى رصين وبمنهج نقدى مزج الرؤية الواقعية والحقائق التاريخية بالرؤية الفنية.

"تورد الوثيقة خمس حقائق أساسية ترى أنها ترتبط بالناس كافة دون تمييز، فتطرحها دونما تعرية لفكرة الصدام الحضارى، لكن بتعويمها من خلال محاولة تدفع وتنفى بها عن نفسها شبهة الحكم على الحضارات الأخرى، وفق معايير الخصائص الجزئية للحضارة الأمريكية،بل تدعى بها الانتصار للخصائص الكلية للقيم، كجملة من الحقائق والمبادئ الكونية التى تدافع عنها، وحيث ترى الوثيقة أن الناس يأتلفون حولها كمرجعية تشكل إمكانيات مفتوحة، يروضون بها نوازعهم فى علاقاتهم، درءا للجموح والتطرف، وتعدد الوثيقة المبادئ الخمسة الأساسية وفقا لما يلى:

* البشر كافة يولدون أحرارا متساوين فى الكرامة والحقوق.
* الشخصية الإنسانية هى الفاعل الأساس فى المجتمع، والدور المشروع للحكومة هو توفير صيانة الشروط التى تكفل الازدهار الإنسانى.
* من طبيعة البشر الرغبة فى بلوغ حقيقة الحياة: الهدف منها، وغايتها النهائية.
* حرية الضمير والحرية الدينية حقوق مصونة للشخصية الإنسانية.
* القتل باسم الله يتناقض مع الإيمان بالله، وهو أكبر خيانة لكونية الإيمان الدينى.

هذه المبادئ الخمسة التى يراها المثقفون الأمريكيون مبررات لقيام واستمرار حربهم، يكشف رصدها عن أنها قاصرة وغير كافية لدرء الصراعات المتجددة، بل إنها – أيضا – لا تخلو من الدس الحضارى، إذ لم يرد ضمن هذه المبادئ ما يؤكد الإيمان بالمصالحة بين الحضارات بتواصلها بدلا من صدامها، بشراكتها بدلا من تحاربها، بإمكانية تعايشها بدلا من نفورها، وصولا إلى مصالحة أعم ؛ وهى مصالحة الإنسان مع العالم، إذا أسقطت قائمة المبادئ المختزلة – عن عمد – الإقرار بقبول الثقافات، بتنوعها وتعددها وتمايزها، وهى

---

(٨٢) د. فوزي فهمي – عار العالم – مكتبة الأسرة – هيئة الكتاب – القاهرة –٢٠٠٣م – ص١١، ص١٢

أم القضايا، فالوثيقة تستر على هذا المعنى، وتحجبه وتمتنع عنه، صناعة لذاتها دون الاعتراف بالآخر، استهدافا إلى كونية ثقافية تصدرها الحضارة الأمريكية فى ظروف تاريخية مأزومة وحرجة ومعقدة، إذ الخطر الأعلى من مجافاة وإنكار التنوع الثقافى أنه يفرز تخطيطا يفتح باب الرهان المؤكد لقطب العالم لنجاح محاولاته فى فرض الوصاية والاختراق والاستدراج، تكريسا للقوة وإرادة الهيمنة والاستيلاء والاقتلاع، فى حين أن تاريخ تفاعل الحضارات يثبت أن الإقرار بالتنوع الثقافى وخصوصيته لا ينتج صداما أو إخفاقا فى التواصل الإنسانى، ولا يمنع السلام والتعايش، وإنما الأنظمة السياسية التى تستهدف الاحتواء والوصاية هى المسئولة عن تأجيج الصدامات ؛ بإسقاط هواجسها على المجتمعات بتصنيفها وفقا لمصالحها لاكتساحها حيث يتفنن منظرو هذه الأنظمة السياسية فى استنباط الأفكار الموهومة وترويجها، للضغط بإجهاض تطور هذه المجتمعات، وتهميشها وحضها على عدم مجاوزة الحدود المرسومة، لذلك فإن وثيقة المثقفين الأمريكيين فى مبادئها الخمسة تكاشفنا أيضا، عبر تفكيك أسرارها، بمبناها الذى يقوم على مقصد غير معلن، يستتر وينحصر – تحديدا – فى التغييب والإعراض عن الإقرار بتجريم استخدام القوة العسكرية كمرجعية لحل المشكلات، إذ ألح على الوثيقة هاجس منظرو سياسية الهيمنة، فأعلنت رفضها لممارسة القتل باسم الدين، كمؤشر يكشف سيطرة مشروع تصدير فكرة الصدام الحضارى القائم على نظرية "هنتنجتون" فى التناحر بين الكتل الحضارية، التي تكرس للتنافس الأساس بين حضارة الغرب وبقية الحضارات، وأخصها الحضارة الإسلامية، وقد توسلت الوثيقة بقراءتها لأحداث سبتمبر، للتدليل على المواجهة بين الإسلام والحضارة الأمريكية فى ممارسة القتل المجانى لغير ما سبب سوى الرفض المؤسس على مفهوم حتمية الانسلاخ الحضاري، فتجاوزت القضية إرادة التقصي، وانعزلت عن صلتها بالواقع المعيش، وقفزت عليه لتنتج بذلك عائقا معرفيا، وهو ما تكشف عنه القراءة التي تطرحها الوثيقة ؛ إذ ترى أن "قتلة الحادي عشر من سبتمبر لم يعلنوا أية مطالب معينة، وبهذا المعنى على الأقل وقع القتل لغرض القتل ذاته، لقد وصف زعيم القاعدة "الضربات المباركة" التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر بأنها ضربات ضد أمريكا، رأس الكفر العالمي، الواضح ــ إذن ــ أن مهاجمينا لا يزدرون

فقط حكومتنا، وإنما يزدرون مجتمعنا بأسره، وطريقتنا في العيش برمتها، جوهر الأمر أن رفضهم لا يقتصر فقط على ما يفعله قادتنا، وإنما يمتد أيضا إلى ماهيتنا نحن"، وبرغم أن الإسلام من الإرهاب براء، وأيضا برغم إدانتنا ورفضنا الكامل لانتهاكات ذلك المخبول "بن لادن" للآمنين من الشعب الأمريكي، وعدم مصادقتنا على ممارسة الإرهاب ومباغتة الأبرياء، إلا أننا أمام ما تطرحه وليقة المثقفين الأمريكيين، لا نقر بتصورها الكلي المتعالي على الواقع والأوضاع والتشابكات، والغرق في التهويمات، فالمجدي هو الخروج على عقلية النمذجة التي لا تحسن سوى أن تجعلنا نخسر ما نتطلع إلى المحافظة عليه.

إن الموقعين على الوثيقة من المثقفين الأمريكيين يعلنون في نهايتها عن نداء، بأن كل رجائهم – بشكل خاص – هو " التواصل مع اخوتنا وإخواتنا في المجتمعات الإسلامية كلمتنا إليكم بكل صراحة: إننا لسنا أعداء، بل أصدقاء، لا يجب أن نكون أعداء، فنحن نشترك في أمور كثيرة جدا، وهناك الكثير الذي لابد أن ننجزه معا.. إننا نعلم أن بعضا منكم لا يثقون بنا على نحو بالغ، كما نعلم إننا ــ الأمريكيين ــ مسئولون جزئيا عن انعدام الثقة على هذا النحو، لكننا لا يجب أن نتعادى، أملنا أن ننضم إليكم، ومع كل أصحاب النوايا الطيبة، كي نقيم سلاما عادلا ودائما"، ومن ذات المنطلق نعاود التأكيد أن الإسلام في سماحته يبرأ من الإرهاب، ويدعو إلى احترام تعدد الأديان والحرية في المعتقدات، وهو ما شهد به علماء الغرب من المستشرقين الدارسين، لقد تعهد نبي الإسلام محمد ﷺ في كتابه إلى أهل نجران من المسيحيين، وفقا لما جاء في مدونة المعاهدات: "لنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم، وأمثلتهم، لا يغير ما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم وأمثلتهم، لا يفتن أسقف عن أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا داقة من دقاهيته، على ماتحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية، ولا يحشرون، ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش" وقد جدد هذا العهد خلفاء النبي ﷺ لكننا نتصدى للخطاب المكذوب ولا نقبل الاستقالة من التفكير، أو القفز فوق المشكلات فالأمر ليس صدام حضارات أو صراع أديان كخاتم تصك به الوقائع والتصورات على أنها حتمية يتم بها تعجيز العقل عن سؤال الحق، كمحاولة لتطويع العرب والمسلمين، وإلزامهم بحياة دون حقهم، ليس لها بديل سوى الإبادة

كمغلوبين، لا ينعمون بسلام عادل ودائم، ويواجهون اغتيال تاريخهم، إن المهمة المطروحة لا تكمن فى التخلص من الحق بتبرير الاختراقات والعدوان، وإنما بفك الارتباط بين حق الاختلاف الثقافى، والاختلاف فى الحق الذى يسلب من أصحابه، فيشكل اختلالا فى حياة شعوبنا ولا يحقق سلاما عادلا ودائما ؛ وإنما إقصاء عن الحقوق".

هذه الأناجيل الجديدة والبيانات وقصف الطائرات وأصوات المدافع التى تدك بلدانا من العالم الإسلامى والعربى هي عالمنا المعاصر.

يصف الدكتور عبدالعزيز حمودة حالنا نحن العرب فى هذا العالم قائلا: "لنبدأ أولا بتقديم تعريف مبسط غير معجمى للمؤامرة وفعل التآمر، يقول: إن المؤامرة هى قيام أحد الأطراف منفردا أو بالتعاون مع طرف أو أطراف أخرى، بالتخطيط إما لإلحاق الضرر بطرف مناوئ، أو على الأقل الحيلولة بينه وبين تحقيق أهداف قد تحرم الأطراف المتآمرة من مزية يتمتعون بها أو تفشل على الأقل خططهم لتحقيق تلك المزية، وعلى هذا الأساس تخطيط تلك الأطراف المتآمرة لإفشال خطط المتآمر عليه وحرمانه فرصة تحقيق أهدافه، ومن الواضح أن التعريف السابق ينطبق بالدرجة الأولى على التآمر السياسى، وهو ذلك النوع من التآمر الذى لا يخضع لمعايير الأخلاق، فنحن نتحدث عن مصالح استراتيجية لا تنطبق عليها المعايير الأخلاقية لتقييم العلاقات الفردية[٨٣]".

ثم يضيف الدكتور عبد العزيز حمودة قائلا: "فى ظل ذلك التعريف المبسط وبعد أن دخلت مرحلة فقدان البراءة متأخرا، بدأت أعيد قراءة النظام الدولى الجديد فى علاقته بالعالم العربى، ولم يكن صعبا على التوصل إلى حكم محدد بأن العالم العربى بتاريخه وحضارته وثقافته، بل بكل ثوابته، يتعرض لمؤامرة خارجية تهدف إلى حرمانه القدرة على تحقيق أهدافه وطموحاته، من ناحية، وإلى فرض أهداف جديدة عليه، أهداف تتفق بالدرجة الأولى مع أهداف الولايات المتحدة الأمريكية فى بداية عصرها الإمبراطوري، ولا تناوئها من ناحية ثانية[٨٤]".

---

(٨٣) د. عبد العزيز حمودة ــ نظرية المؤامرة أمس واليوم ــ جريدة الأهرام بتاريخ ٢-٣-٢٠٠٤م

(٨٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

يقول أنيس منصور بأسلوبه التهكمي المتميز[٨٥]: أمريكا شرعت فى فتح مدرسة لمحو الأمية السياسية في الشرق الأوسط الذي اختارت له اسما جديدا هو (الشرق الأوسط الأكبر) الذي يضم الدول العربية مضافا إليها الدول الإسلامية إيران وأفغانستان وباكستان والدولة العبرية إسرائيل.

الدرس الأول: ما هي الديمقراطية؟ والدرس الثاني: ما هو الإرهاب؟ والدرس الثالث: ما ضرورة الجامعة العربية؟ والدرس الرابع: ما هي الحقوق التاريخية المزعومة لمصر فى مياه النيل؟.

أي أننا لا نعرف الديمقراطية أو أن القدر الذى نعرفه منها ليس كافيا لأن نكون شعوبا حرة ولقص الحرية فى بلادنا كان سببا فى ظهور الإرهاب الإسلامى أو الإرهاب باسم الإسلام. ومن حقنا أن نسأل: إن كانت الديمقراطية الأمريكية هي المثل الأعلى، فأمريكا هي التي اخترعت (بن لادن) ليكون سلاحا ضد السوفييت الملحدين ولما انسحب السوفييت وانهارت الدولة السوفييتية، انتهى دور بن لادن، واتجهت للقضاء عليه وعلى كل من كانت له صلة به كل ذلك باسم الديمقراطية الأخلاقية محور الخير فى هذه الدنيا ثم لا تسمى موقفها من الدول الإسلامية حربا صليبية مع أن الرئيس بوش هو أول من استخدم هذا التعبير، وأمام الغضب الإسلامي فى كل الدنيا، والتخوف المسيحي قال إنها غلطة وقع فيها، فليست حربا صليبية، وإنما هى حرب هلالية، أي بين الهلال والهلال أو بين المسلمين والمسلمين أو هى حرب هلالية نجمية أي بين الهلال ونجمة داود ولكن أي إنسان يعرف مبادئ التحليل النفسى لفرويد يدرك أن الغلطة التي وقع فيها الرئيس بوش هي أصدق ما قال فلم يفلح في إخفائها فانكشفت وانكشف.

والديمقراطية التى عند الأمريكان تختلف عن ديمقراطية الإنجليز التى جعلت من توني بلير رئيس الوزراء رئيسا جمهوريا للمملكة المتحدة وأنه حاكم فرد، وأنه شمولى، هذا رأى زملائه في حزب العمال ورأى خصومه من المحافظين.. تبقى بعد ذلك الديمقراطية الدموية في إسرائيل. ولابد أن نرفع أيدينا من أول لحظة فى الحصة الأولى ونسأل البروفيسور بوش أى هذه الديمقراطيات تختار لنا يا سيادة الرئيس؟!".

---

(٨٥) أنيس منصور ــ مواقف ــ جريدة الأهرام بتاريخ ١٤-٣-٢٠٠٤م.

إعادة تشكيل المنطقة العربية:

يهدف الحلف الأمريكى الصهيونى بجلاء تام إلى إعادة تشكيل المنطقة العربية بما يحقق الهيمنة الأمريكية بصفة مطلقة على المنطقة العربية وعلى الدائرة الإسلامية وبما يحقق الأمن المطلق والسيطرة الكاملة لإسرائيل. ويتم تحقيق هذا الهدف بوسائل عديدة أولها القتل والتخريب والإبادة، وآخرها جذب عناصر من داخل المنطقة للإسهام فى إعادة تشكيل المنطقة من الداخل ولو جزئيا، أو تبرير الإجراءات الأمريكية ضد شعوب هذه المنطقة.

وتمضى الإجراءات الأمريكية والإسرائيلية بوتيرة متسارعة منذبداية القرن الحادي والعشرين، فعلى الجانب العسكري تم احتلال أفغانستان ثم العراق، والمذابح اليومية فى فلسطين والتخلي يوما بعد يوم عن أية فرصة لتسوية سلمية تعطى الفلسطينيين بعض حقوقهم، وعلى الجانب السياسي الدبلوماسي أطلقت الولايات المتحدة الأمريكية نظرية إصلاح الأحوال السياسية فى البلدان العربية وطرحت نظرية الشرق الأوسط الكبير، أو الشرق الأوسط الأوسع. ولقد خطت الولايات المتحدة فى يونيو ٢٠٠٤م خطوة تنفيذية أوسع حين طرحت على الدول الثماني[٨٦] موضوع الشرق الأوسط الأوسع وأسندت بعض مهام الإصلاح إلى بعض الدول الأعضاء.

وسعت الولايات المتحدة للاستعانة بخبراء عرب لإعداد تقرير عن التنمية الإنسانية العربية من خلال برنامج الأمم المتحدة الإنمائى، والصندوق العربي للإنماء الاقتصادى والاجتماعي، وصدر تقريران عام ٢٠٠٢م ثم عام ٢٠٠٣م.

ومن باب الإنصاف حفل التقريران بحالة الاستعمار الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية وبحالة الشعب الفلسطيني وموقف إسرائيل الرافض للسلام باعتباره عائقا للتقدم العربي، ولكن الخطاب السياسي والإعلامي الأمريكي يسقط ذلك، ويشير إلى تمكين النساء، وإلى الحرية والديمقراطية.

---

(٨٦) الدول الثماني هي: الولايات المتحدة الأمريكية ــ بريطانيا ــ فرنسا ــ اليابان ــ ألمانيا ــ إيطاليا ــ كندا ــ روسيا. وهناك اقتراحات لم يصدر قرار بشأنها بعد بضم الصين والهند ليصبح العدد عشرة.

والسؤال الذي لا يستطيع عاقل الهروب من إلحاحه هو: لماذا الاهتمام الأمريكي الشديد بإصلاح العالم العربي والعالم الإسلامي؟

الإجابة السطحية والمباشرة والتي يروج لها الأمريكيون هي: أن الدكتاتوريات العربية هي التي أفرزت الإرهاب.. وبالإصلاح السياسي والاقتصادي وإطلاق الحريات في البلدان العربية والإسلامية تجف منابع الإرهاب. ولكن الإجابة المتعمقة تشير إلى هدف الهيمنة والسيطرة على النفط، إلى جانب هدف آخر هو تفكيك هذه المجتمعات وإشعال الحروب الأهلية والفوضى داخلها حتى تتمكن إسرائيل من السيطرة على المنطقة.

ومن الملفت للنظر أن التوصية الأولى في التقرير النهائي للجنة التحقيق[٨٧] في تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م هي "يجب أن تجمع الاستراتيجية الأمريكية بين هدفين: تفكيك تنظيم القاعدة، وعلى المدى البعيد دحر الأيدلوجيات (العقيدة) التي تساهم في الإرهاب الإسلامي ". وهكذا يتبين لنا أن التوصية الأولى هذه في وليقة المثقفين الأمريكية وتقارير التنمية العربية الأمريكية وتكليفات مجموعة الدول الثمانية ودعوة الإصلاح الأمريكي تنبع جميعها من مشكاة واحدة هي مشكاة الإمبراطورية الأمريكية والتمكين لإسرائيل.

وقد صور الكاتب المبدع فوزي فهمي[٨٨] في كتابه "عار العالم" هذا الواقع المحزن قائلا:

" روى الأقدمون أن صيادا كان إذا اصطاد عصفورا اكتفى بقصف جناحيه وتركه أسيرا له، والمدهش في حكاية هذا الصياد انه في أثناء الصيد اعتاد أن يذرف دموعه، ويتركها تسيل على خديه كالنهر، استشفاقا وأسفا، كتبرير واعتذار عما يفعله، حيث يزدوج ويتوازى الحادثان معا: البكاء المستمر، ومزاولة قصفه لأجنحة العصافير، إتقان ومهارة فائقين، ونتيجة الحدثين المزدوجين برغم تناقضهما، فإنهما يورثان العصافير عجزا عن الطيران، إذ تنحسر عنها بذلك حريتها بانحسار قدرتها على امتلاك فضاء الكون،

---

(٨٧) جريدة الأهرام بتاريخ ٥-٩-٢٠٠٤م.

(٨٨) د. فوزي فهمي ــ عار العالم ــ مرجع سابق ــ ص٥٠ إلى ص ٦١.

وبالطبع لا تفيدها الدموع فى شىء"، إذ لا يصبح أمامها بعد خسارتها سوى الركض فى مجال مساحة أرض تمتلكها هيمنة يد الصياد، وحدث فى يوم صيد، والصياد على حالته الازدواجية بين الفعلين، أن قال العصفور الأبله الذى لا يعى ما افتقده، وهو يئن من نزف الدم، منبها زميله حينما شاهد دموع الصياد على خديه: أنظر إلى وجه الصياد، ترى الدموع فى عينيه، إنه يبكى من أجلنا، ما أرقه!! تعجب العصفور الأكثر وعيا، والذى لا تخدعه الظواهر أو تضلله، ويدرك توازى الحدثين، بل يعى معنى كل حدث على وجوده، وما يسلبه منه، أى أنه يمتلك قدرة محاكمة الواقع الحى، فاندفع مجيبا زميله الأبله لينتشله من الوهم قائلا: " انتبه، ولا تنخدع بدموع عينيه، بل انظر أيضا إلى صنع يديه!!.

يبدو أن صناع وثيقة التبريرات الأمريكية أرادوا – كما فعل الصياد – أن يعيبوا عنا الوعى والتبصر كأدوات للفهم والتشخيص كى لا ننظر – مثل العصفور الابله – إلى ما تشكله أفعال وسياسات قادتهم من اعتداءات وإهدار للحريات، واستئراف للطاقات فى مجرى الواقع اليومى، بل علينا أن نستمع إليهم وهم يمارسون على العالم وعلينا وكالتهم الأخلاقية وتهويماتهم التبريرية، فنقتنع بها – مثل العصفور الأبله – ونتقبل بكل الرضا – ونحن نئن – تشخيصاتهم وتصوراتهم، وهم يستدرجوننا بآليات لعبة الخطاب المزدوج التى يتأسس عليها مشروع هيمنتهم على كل شىء بما يسمى "الحرب العادلة".

إن دموع الصياد المصاحبة لقصفه أجنحة العصافير، جاءت فى الوثيقة، على المجاز، بأشكال متعددة ؛ فمرة فى شكل إقرار اعترافات بأخطاء السياسة الأمريكية، وهذه الاعترافات قصد بها أن تكون – تماما – مثل دموع الصياد لا تأثير لها، بمعنى أنها لن تغير فى مسارها من نتائج الفعل المستهدف، فصناع الوثيقة يعترفون " إننا ندرك أن أمتنا قد تصرفت – فى بعض الأحيان – بغطرسة وجهل إزاء المجتمعات الأخرى، كما اتبعت أمتنا سياسات غير حكيمة وغير عادلة فى أحيان أخرى، وفى أغلب الأحيان أخفقنا كأمة فى أن نسير إلى المثل التى ارتضيناها لأنفسنا ". ولا شك أن الاعتراف بأخطاء السياسة الأمريكية من جهة – وهذا ما يهمنا – وكذلك الاعتراف بانسداد شرايين المجتمع الأمريكى عن التمثل والإلتزام بمبادئه الأخلاقية من جهة أخرى، وبالطبع هذا شأنهم، هذا

الاعتراف كان لابد أن يذهب إلى أبعد من مجرد تدوين ملاحظات بالأخطاء، بل ينبغي أن يذهب إلى حد بناء تصورات فاعلة بديلة، تتخطى التدوين الإجمالي المعمم لهذه الأخطاء، إلى الكشف عن نتائجها والجهر بها في وجه مجتمعهم، ومواجهة صناع السياسة الأمريكية بها، باعتبار المسئولين بسياساتهم عما يحدث لمجتمعهم، لكن لأن هذا الاعتراف غايته محددة، فقد صاغوه في وثيقتهم المحبوكة مفرغا لفكرة الاعتراف بالخطأ من مضمونها الصحيح، وفي سياق لعبة الخطاب الخادع المزدوج، الذي يستهدف في العلن إدراج الأخطاء استدراجا واتقاء، وكواجهة تجسد حضور ضميرهم الثقافي، وفعالية ممارسته لمسئوليته، انفلاتا من حسابات الحرج أمام مجتمعهم بتسترهم على تجاوزات حكوماتهم، وليسبغوا الحد الضروري من توافر المصداقية على خطابهم، ثم بالمخالفة على الجانب الآخر، وبمهارة متخفية، يتوسلون بآليات المناورة والحجب، حتى لا يجنح الاعتراف بالأخطاء إلى التنديد والإدانة لحكوماتهم؛ لذا فهم يحسمون موقف الرفض بأن تكون تلك الأخطاء غطاء كافيا لما حدث، بتنحيتهم لهذه الأخطاء جانبا، وتكوين حزام عازل حولها، رفضا لإمكانية الأخذ بتأثيرها، وإسقاط للدعاوى التي ترى أنها تعد أسبابا لما حدث أو تبريرا له، ولكي لا تصبح هناك فرصة للمجادلة، فإنه على الفور، وبقفزة واحدة – في صياغة الخطاب – تنتقل الوثيقة متجاوزة هذه الأخطاء، وأية إشكالات للسياسة الخارجية، لتفك ارتباطها بما حدث، إذ يعلن صناع الوثيقة " إننا نجتمع على قناعة ونثق أن الناس جميعا من أصحاب النيات الطيبة يشاركوننا فيها، ألا وهي أن الارتكان إلى سياسات خارجية معينة، بما تشتمل عليه من مزايا أو مساوئ، لا يمكن أن يبرر، أو حتى يضفي معقولية على الذبح الجماعي لأناس أبرياء". ونسأل صناع الوثيقة عن تلك المعقولية التي يمكن أن تبرر المذبحة الجماعية لأبرياء ضحايا تفجير المركز التجاري في أكلاهوما عام ١٩٩٥م، والذي راح ضحيته ١٦٨ قتيلا، وبلغ عدد جرحاه ٦٧٤جريحا أمريكيا من المدنيين الأبرياء، ألم تكشف المحاكمة أن مرتكبه "تيموثي ماكفاي" قد نفذ مذبحته انتقاما لمقتل ثمانين متطرفا أمريكيا بمعرفة شرطة تكساس قبل سنتين من وقوع المذبحة؟ ألا يعني ذلك أن المنقب دوما لابد أن يجد لكل المسالك أسبابا، وأن الوصول إلى الحقيقة لا يتوقف على مدى مطابقتها لتصوراتنا عن معقوليتها وإنما يتوقف على

موضوعية البحث عنها، لكن لأن صناع الوثيقة يستهدفون الإيهام بأن سياسات حكوماتهم لا تعد سببا كافيا لتبرير ما حدث ؛ لذا نراهم يناورون فى إطار لعبة الخطاب المزدوج، فيسارعون -بالاستدراك- إلى النفى عن حكوماتهم اتهام الاستفراد برسم سياساتها بعيدا عما تقتضيه قيم مجتمعهم، بما يعنى أن سياسات حكوماتهم -وإن تقاطعت وتخاصمت مع البلدان التى ينتمى إليها هؤلاء القتلة- لا تخرج بذلك عن مرجعياتها، وتبريراتهم تستند إلى ما تستوجبه الديمقراطية الأمريكية كقاعدة مرجعية حاكمة، تعد، - وفقا لسلطات مؤساتها - قيدا على سياسات حكوماتهم، حيث إن هذه السياسات محمولة على الثبات والاقتران والارتباط بإرادة المحكومين، وما ارتضوه من قيم، فعلى الوثيقة يعلنون تبريرهم بأنه" فى ديمقراطية مثل ديمقراطيتنا - حيث تستقى الحكومة سلطتها من قبول المحكومين - تصدر السياسة على الأقل جزئيا عن الثقافة، أى عن القيم والأولويات التى يتبناها المجتمع ككل "، وكأنهم بذلك يرممون ذاكرة مجتمعهم لتدرك أن حكوماتهم لا إثم عليها، ولا إدانة فيما تفعله وتمارسه من سياسات خارجية.

مع أن الوثيقة فى البداية صادرت -بوضوح - مبدأ الأخذ بالأسباب السياسية كتبرير للأحداث وذلك فى مساق تبطين مقصود يستهدف تحديد وتشخيص العلة والدوافع فى عقل القتلة ذاته، والمشحون بالرفض المطلق -وفق مرجعيات مغلقة- لأسلوب حياة ووجود وماهية الأمريكيين، من حيث مغايرتهم وعدم مماثلتهم للنموذج المرتجى، ثم تحت مظلة تقنيات التبرير، استندت الوثيقة إلى مشروعية صدور السياسة الأمريكية عن قيم مجتمعها، والتى تصاغ صوغا معياريا وفقا للأولويات التى يتبناها المجتمع الأمريكى فى إطار توجهات مصالحه، وهكذا تكون الوثيقة قد حققت دفع تشخيصها للمشكلة إلى الغاية النهائية المستهدفة، فتبدى الأمر على أنه مواجهة بين تصورين للحياة متعارضين، عندئذ تولد من السياق الذى فرضته الوثيقة من حيث بنائها، سؤال باحث عن إجابة تفسر تلك المعضلة، هذا السؤال الحائر كان قد تجسد وشاع فى الشارع الأمريكى عقب الأحداث بصيغة " لماذا يكرهوننا؟ "، وقد فرض سياق الوثيقة على السؤال إجابته، إذ الإجابة التى يطرحها السياق تفسيرا لجوهر المعضلة، إن المشكلة ترهن بالمفاهيم والرؤى وتضادها، بمعنى أن الأسباب تكمن فى صدام رؤيتين للعالم، وهى الإجابة المستبطنة لنظرية صدام الحضارات والكاشفة لأسباب وافع أحداث العنف المدمر، التى

تتحدى أساسا معتقدات الغرب، وتسعى إلى تدمير حضارته، ثم تبسط الوثيقة أطروحتها المتبناة، بأن هذه " الحركة لا تناهض فقط بعض السياسات الأمريكية والغربية، ولكنها تناهض -علاوة على ذلك- مبدأ تأسيسيا يقوم عليه العالم الحديث ؛ ألا وهو التسامح الدينى"، ولكى تشحذ الوثيقة إرادة مجتمعها، وتقوى شعوره بالخطر ؛ تمارس لمدح رصدها لقدرة المجاوزة لكل ما يكون حدا مانعا لهذه الحركة عن تحقيق أهدافها، فتعلن أن " الأمر الأخطر من ذلك كله أن جرائم القتل الجماعى التى وقعت فى الحادى عشر من سبتمبر كشفت -لأول مرة- على ما نزعم أن ما تملكه هذه الحركة ليس فقط مجرد الرغبة الصريحة المعلنة، وإنما أيضا القدرة والخبرة، بما فى ذلك احتمال حصولهم واستعدادهم لاستخدام أسلحة كيميائية وبيولوجية ونووية، تمكنها من القيام بعمليات تدمير واسعة ومفزعة على أهدافها المحددة ".

وتأتى دموع الصياد على انجاز بالوثيقة فى خطابها المزدوج مرة ثانية، وتتمثل فى الحديث المعدوم التأثير عن الفصل بين الإسلام الحقيقى وحركة التطرف، فتعلن الوثيقة أن " هذه الحركة المتطرفة تزعم أنها تتحدث نيابة عن الإسلام، ولكنها تخون مبادئ الإسلام الأساسية ؛ ذلك أن الإسلام يعارض الفظائع الأخلاقية، إننا ندرك أن الحركات التى تتخفى فى نسوخ الدين تنطوى على أبعاد سياسية واجتماعية وديموغرافية معقدة يجب الالتفات إليها بعناية، إنها تنظر إلى العالم بوصفه صراع حياة أو موت بين المؤمنين وغير المؤمنين، وهى بذلك كله تذل -بشكل واضح- كرامة الأشخاص كافة بشكل متساو، وهى بذلك أيضا تحيد عن الدين، وترفض الأساس ذاته الذى تقوم عليه الحياة المتحضرة، كما تنكر إمكانية إحلال السلام بين الأمم"، لكن يظل الفعل المساوى لقصف الصياد لأجنحة العصافير على انجاز حاضرا، مستهدفا بالوثيقة فى خطابها الذى ينطوى على تداخلات تتواصل بالإلحاح الضمنى على الإيهام الذى يسعى إلى الممازجة بين هذه الحركة، وبين كيان جمعى ينحاز إليها ويدعمها ويؤازرها ويتحالف معها، فتورد الوثيقة إحصاء لهذا الكيان تحدده بأربعين دولة، دون أن تسمى أسماءها، والعدد الوارد بالوثيقة يقل عن عدد دول العالم الإسلامى الخمسة والخمسين دولة باستثناء خمسة عشر دولة، إذ تعلن الوثيقة أن " الذين ارتكبوا أعمال الحرب تلك لم يتصرفوا من تلقاء أنفسهم، أو دون دعم من أحد، كما لم يفعلوا ذلك لأسباب غير معلومة ؛ لقد كان هؤلاء الأفراد

أعضاء فى شبكة متأسلمة دولية، تمارس نشاطها فيما يقرب من أربعين دولة، وهى الشبكة المعروفة الآن فى العالم باسم " القاعدة " وهذه الجماعة لا تشكل سوى أحد فروع أذرع حركة متأسلمة كبيرة راديكالية، ظلت تتنامى لعقود، وتحظى بقبول، بل بتأييد حكومات معنية"، هكذا تبرر الوثيقة التى وقعها ستون مثقفا أمريكيا ما يسمى "بالحرب العادلة" ضد الإرهاب وتحدد هدفها ومداها، ومساحة ميادين معاركها التى تصل إلى أربعين دولة!!.

صحيح أن القيم الإنسانية والأخلاقية تبرأ من الذبح الجماعى لأناس أبرياء، ولا تبرره، ولكنها أيضا تبرأ ممن يتخلون عن مسئوليتهم الثقافية، ويتسمرون على عتبات التبريرات، ويغيبون ضمائرهم خانعين ويمارسون ازدواجية المعايير، أين كان هؤلاء المثقفون الأمريكيون الموقعون على وثيقة التبريرات الأمريكية، عندما وافقت الأمم المتحدة عام ١٩٨٧م على إصدار قرار حصيف بإدانة الإرهاب، وتمت الموافقة عليه بالإجماع، وامتنعت دولة "هندوراس" عن التصويت، فى حين وقفت الولايات المتحدة وإسرائيل ضد هذا القرار؟! لماذا لم يراجع هؤلاء المثقفون الأمريكيون موقف حكومتهم من القرار بإصدار وثيقة تعلن موقفهم؟ أليس السبب، كما يقول المثقف والمفكر الأمريكى اليهودى " نعوم تشومسكى " لأن هذا القرار كان به فقرة تنص على أنه فى أى من تفاصيله لا يفتئت على حقوق أولئك الذين يكافحون ضد الحكومات العنصرية أو الاستعمارية، أو ضد احتلال عسكرى أجنبى بما يكفل لهم مواصلة مقاومتهم بدعم من حكومات أخرى فى قضيتهم العادلة! بالطبع لا يمكن للولايات المتحدة وإسرائيل أن تقبلا ذلك ؛ أولا: لتحالفهما مع نظام جنوب إفريقيا العنصرى، ثانيا: لاحتلال إسرائيل العسكرى لأراض عربية، ورفضها الخروج منها منذ عام ١٩٦٧م، ثم أيضا لاحتلالها جنوب لبنان، كل ذلك تحت مظلة الدعم الأمريكى الكامل.

ترى، ألم يدرك المثقفون الأمريكيون الموقعون على الوثيقة، أن موقف حكومتهم من قرار الأمم المتحدة –وقتذاك– يعنى عرقلة الجهود الدولية لمواجهة الإرهاب باستخدامها حق النقض (الفيتو) ".

يعرض الكاتب الصحفي رضا هلال[٨٩] كتاب المستشرق برناردو لويس Bernard Lewis الذى يعد شيخ المستشرقين المعاصرين، (أزمة الإسلام، حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس) The crisis of Islam, Holy war and Unholy Teror

فيقول: لقد أعاد برنارد لويس فى هذا الكتاب كتاباته القديمة فى التأصيل التاريخى لمقولة صدام الحضارات، ويقول رضا هلال: إذا كانت أهمية هذا الكتاب تبدو فى إجابته عن سؤال الأمريكيين " لماذا يكرهوننا "؟ فإن المقابل ينبغى أن يجيب عن سؤال المسلمين: لماذا يحاربوننا؟ أو لماذا تحاربنا أمريكا؟.

يلخص برنارد لويس (للقارىء الغربي والأمريكي خصوصاً) تاريخ الخلافة الإسلامية خلال ١٣ قرناً، والصراع بين دار الإسلام والغرب (المسيحي)، ثم يعود إلى ٢٣ فبراير ١٩٩٨ وهو تاريخ إعلان بن لادن عن تأسيس "الجبهة العالمية الإسلامية للجهاد ضد اليهود والصليبين" ويتوقف برنارد لويس عند مبررات الجهاد عند بن لادن وهي –كما وردت في إعلان الجبهة العالمية الإسلامية–.

أولاً : أن الولايات المتحدة تحتل أرض الإسلام؛ بل الأراضي الإسلامية المقدسة في الجزيرة العربية.

ثانياً: أن الولايات المتحدة تقوم بتدمير الشعب العراقي من خلال العقوبات والعمل العسكري، لإذلال الشعوب الإسلامية المجاورة.

ثالثاً: بالرغم من أن أهداف الولايات المتحدة من الحروب ضد المسلمين هي أهداف دينية واقتصادية إلا أنها تخدم أيضاً الدولة اليهودية.

وهذه الجرائم ـــ الوجود الأمريكي في جزيرة العرب، تدمير العراق وخدمة إسرائيل –اعتبرها بن لادن بمثابة إعلان واضح من الأمريكيين للحرب ضد الله ورسوله والمسلمين. أما الأمريكيون –كما يشير برنارد لويس– فقد اعتبروا إعلان بن لادن تشويها للحقائق حول طبيعة وهدف وجود الولايات المتحدة في الجزيرة العربية، فهم يعرفون أن القوات الأمريكية وجدت هناك لتحرير الكويت من الاحتلال العراقي

---

(٨٩) رضا هلال اختفى عام ٢٠٠٣ ولم تستطع التحريات وجهود البحث العثور عليه حتى الآن)(عرض الكتاب نشر بجريدة الأهرام بتاريخ ٢٤–٨–٢٠٠٣م

ولحماية موارد البترول. كما أن على الأمريكيين أن يكونوا واعين بأن إعلان بن لادن، قد اعتبره كثير من المسلمين بل عموم المسلمين تشويهاً لطبيعة الإسلام ولمذهبه في الجهاد، فالقرآن قد تحدث عن السلام كما تحدث عن الحرب، كما أن السنة النبوية قد جرى تأويلها أكثر من تأويل. وفي النهاية فإن التأويل المتشدد الذي يبرر العنف ليس إلا أحد تأويلات الدين الإسلامي، وهذا التأويل المتشدد العنفي قد يتبناه عدد معتبر من المسلمين إلا أن قلة منهم هي التي تطبقه، غير أن الإرهاب يتطلب قلة فقط، ومن هنا يتوصل برنارد لويس إلى أنه إذا كان بن لادن والمتشددون الإسلاميون يعتبرون الحرب ضد الإسلام حرباً مقدسة فهي ليست كذلك لأنهم قلة تجعل الإرهاب غير المقدس مقدساً، ولذلك فإن الحرب التي ينخرط فيها العرب (وفي مقدمته أمريكا) هي حرب ضد الإرهابيين وفي هذه الحرب، من المهم فهم دوافع الإرهابيين.

تحديد الإسلام:

يحاول برنارد لويس في أول فصول الكتاب الذي اختار له عنوان "تحديد الإسلام" تعريف القارئ الأمريكي والغربي عموماً بالإسلام، وبعد أن يبدأ بتأكيد صعوبة التعميم حول الإسلام، يقدم معنيين للإسلام أولهما، الإسلام كدين، أي: كنظام للاعتقاد والمعاملات، وثانيهما: الإسلام كحضارة نمت وازدهرت في كنف هذا الدين، ويثني لويس على الإسلام باعتباره ديناً عظيماً يعطي كرامة ومعنى للحياة الإنسانية، ويقوم على المساواة والأخوة بين الناس في مختلف الأعراق. كما أنه دين ألهم حضارة عظيمة عاش في جنباتها غير المسلمين إلى جانب المسلمين في جو من التسامح، وبإجازاتها أغنت العالم ككل. ولكن الإسلام عند لويس – مثله مثل غيره من الأديان عرف فترات سيطر فيها على (بعض) اتباعه مزاج الكراهية والعنف الذي توجه نحو الغرب، وهنا تبدو المشكلة في (بعض أتباعه) إذ إن كثرة من المسلمين تتشارك مع الغرب في معتقدات ثقافية واجتماعية وسياسية محددة، كما أن التأثير الغربي – ثقافياً واجتماعياً وسياسياً حاضر في بلاد المسلمين التي يعتبر بعضها حليفاً للغرب ولكن هناك صعوداً للكراهية يربك الأمريكيين.

وهذه الكراهية، قد تتعدى مستوى للأعداء لسياسات ولمصالح ولأعمال وحتى

للدول غربية إلى مستوى رفض الحضارة الغربية ليس لما تقطعه وإنما لما تمثله من مبادئ وقيم تجعلها "عدو الله" ولتصبح أمريكا "الشيطان الأكبر" حسبما تقول تصريحات قادة إيران.

يتطرق الكتاب إلى السؤال الرئيس الذي يمثل اهتمام صناع السياسة في الغرب حالياً وهو: هل الإسلام، الأصولي أو غيره، تهديد للغرب؟

يجيب برنارد لويس بأن هناك مدرسة في التفكير، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي والشيوعية، اعتبرت الإسلام والإسلام الأصولي تحديداً هو التهديد البديل للغرب وللحياة الغربية. وهناك مدرسة تفكير أخرى، اعتبرت أن الإسلام (وضمنه الإسلام الأصولي المتشدد) دين سلام وطاعة، وأن الغرب عندما اعتبر الإسلام تهديداً فإن ذلك لأنه كانت لدى الغربيين حاجة نفسية لعدو يحل محل الاتحاد السوفيتي السابق.

وينظر برنارد لويس إلى أن كلتا المدرستين خاطئة ولو أصابت بعض الحقيقة. فالإسلام ليس عدواً للغرب، وهناك أعداد متزايدة من المسلمين هنا وهناك، لا ترغب في شئ أكثر من الاقتراب من علاقات صداقة مع الغرب ومن تطوير مؤسسات ديمقراطية في بلاد المسلمين. ولكن هناك عدداً صغيراً من المسلمين، يعادون الغرب ويمثلون خطراً ليس لأن الغرب يحتاج إلى عدو، ولكن لأنهم "عدو". وفي السنوات الأخيرة، هناك تغيرات في المدركات وفي التكتيكات لدى المسلمين، فبعضهم لم يزل يرى الغرب – إجمالاً– وقائدته أمريكا –خصوصاً– كما كان دائماً عدو الإسلام والعقبة الكئود أمام عودة الإسلام وتطبيق شريعته في دار الإسلام وسيادته على العالم. وهؤلاء ليس هناك من طريق إلا الحرب حتى النصر أو الشهادة ولكن هناك مسلمين آخرين ظلوا مسلمين ملتزمين ويولون اهتماماً بالمجتمع الغربي الحديث وإنجازاته في العلم والتكنولوجيا والديمقراطية، ويريدون مشاركة الغرب في عالم أفضل.

وهكذا يصل بنا برنارد لويس إلى أن هناك مسلمين معادين للغرب وآخرين متوافقين مع الغرب، وأن حرب الغرب بقيادة أمريكا هي حرب ضد من يتبنون "العنف المقدس" ضد الغرب، فهو عنف غير مقدس إلا في التأويل الأصولي العنفي للإسلام.

وفي محاولة للتمييز بين الإسلاميين الإرهابيين وأتباع الإسلام، يخصص كتاب "أزمة

الإسلام" فصله الثاني لموضوع الجهاد تحت عنوان "دار الحرب".

يقول برنارد لويس إن جذر كلمة جهاد في العربية هو الفعل (جهد) بمعنى عاني أو بذل جهداً وقد ارتبطت الكلمة في النصوص الإسلامية التقليدية بالمعاناة والصراع والقتال في سبيل الله. وبرغم أن الإسلام قد قسم العالم إلى "دار الإسلام" حيث شرع الإسلام، و "دار الحرب" التي يتوجب فيها الجهاد لنشر دين الله، فإن الجهاد لم يكن بالضرورة أو بالإلزام من خلال العنف والحرب، فالتسامح الديني واجب شرعي إسلامي وليس مجرد ميزة (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)، (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)، (فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ). وفي الأراضي الخاضعة للحكم الإسلامي، أقر الإسلام حقوق المسيحيين واليهود في ممارسة شعائرهم وفي تصرفهم في أمورهم مقابل دفع الجزية التي كانت تحصل منهم لأنهم لا يشاركون في الحرب.

وبالتالي فإن دار الحرب –كما يورد لويس– كانت دار المشركين ولم تكن دار المسيحيين واليهود. كما أن دار الحرب لم تكن تتضمن أهل العهد أي غير المسلمين ممن تعاهد معهم المسلمون ولم يمنع الجهاد تحالف المسلمين مع غير المسلمين حتى خلال الحروب الصليبية.

ومرة أخرى، فإننا أمام مشكلة التأويل العنفي الأصولي الذي حدد الجهاد في القتال ضد المسيحيين واليهود، وهو التأويل الذي لا تأخذ به أغلبية المسلمين وإنما يأخذ به الإرهابيون. وفي محاولة أخرى للتمييز بين الإرهابيين الإسلاميين وعموم المسلمين، يخصص في كتاب "أزمة الإسلام" فصه الثالث لإدراك المسلمين للغرب، تحت عنوان "من الصليبيين إلى الإمبرياليين". ويشير برنارد لويس إلى أن الحملات الصليبية ما زالت ماثلة في وعي وخطاب العرب والمسلمين خصوصاً بين القوميين العرب والإسلاميين الأصوليين وفي مقدمتهم بن لادن. ففي الوعي والخطاب العربي القومي والإسلامي الأصولي أن احتلال الصليبيين للقدس عام ١٠٩٩ كان انتصاراً للغرب المسيحي ومأساة عربية إسلامية، وبالمثل فإن استرداد المسلمين للقدس ما زال حدثاً ملهماً لتحرير فلسطين، كما أن صلاح الدين الذي استرد القدس عام ١١٨٧، أي بعد حوالي ٨٨ عاماً، ما زال ملهماً للقوميين العرب والإسلاميين الأصوليين في التعامل مع الغرب المسيحي والدولة اليهودية في الصراع الحالي.

وفي وعي وخطاب القوميين العرب والإسلاميين الأصوليين -أيضاً- أن الحملة الفرنسية على مصر والشام في نهاية القرن الثامن عشر، كانت امتداداً للحروب الصليبية وكان الإمبرياليون امتداداً للصليبيين.

ويتوصل برنارد لويس إلى أنه أياً كانت الجوانب السلبية والإيجابية للاستعمار الغربي للشرق الأوسط، فإن العرب والمسلمين بسبب سيطرة الوعي القومي والديني قد تحالفوا مع ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتي الشيوعي برغم أنهما كانتا قوتين إمبرياليتين، فالحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، ورشيد عالي الكيلاني، وأنور السادات انحازوا للنازي وللمحور ضد الحلفاء. وفي مرحلة الاستقلال الوطني، أصبحت مصر وسوريا والعراق واليمن وليبيا والسودان والجزائر دولاً حليفة للاتحاد السوفيتي في الحرب الباردة ضد الغرب (الإمبريالي!) وعلى رأسه أمريكا، وبعد ذلك انصب العداء على أمريكا، والسؤال لماذا؟.

اكتشاف أمريكا:

في الفصل الرابع من الكتاب وتحت عنوان "اكتشاف أمريكا" يفسر برنارد لويس عداء القوميين والإسلاميين لأمريكا.

أحد مكونات ظاهرة العداء لأمريكا هو المؤثرات الثقافية الأوروبية، وأول هذه المؤثرات هو المؤثر الألماني الذي تضمن رؤية سلبية لأمريكا كما وردت في كتابات رينر ريلكه وأوزوالد شبنجلر، وارنست جنجر ومارتن هدجر التي صورت أمريكا على أنها مثال لحضارة بدون ثقافة، غنية ومريحة ومتقدمة تكنولوجياً ولكنها بلا روح واصطناعية، هي نتيجة تجميع أو تركيب في أحسن الأحوال وليست نتيجة نمو طبيعي، ميكانيكية وليست عضوية، مجمعة تكنولوجياً ولكن بغير روحية وحيوية الثقافات القومية الإنسانية المتجذرة لدى الألمان وغيرهم من الشعوب القومية.

وهذه الفلسفة الألمانية نالت إعجاب الكثرة من المثقفين والسياسيين العرب. كما كانت النازية ضمن الأيديولوجيات الألمانية، مؤثرة في الدوائر القومية العربية خاصة بين مؤسسي واتباع حزب البعث في سوريا والعراق وبانتهاء الحرب العالمة الثانية، اندحرت النازية، وخرجت الولايات المتحدة قائدة للعالم الغربي ذات نصيب في عداء العرب والمسلمين للغرب عموماً.

ولكن زوال التأثير النازي، بعد الحرب العالمية الثانية، تلاه التأثير السوفيتي -

الشيوعي الذي أمد القوميين والإسلاميين العرب بزاد جديد في معاداة أمريكا- وبعد ذلك قامت نظم حكم في البلاد العربية مستمدة من النظام الستاليني سياسياً واقتصادياً، واستخدمت معاداة أمريكا في تبرير تلك النظم الديكتاتورية والتسلطية.

وفي الفصل الخامس: يشير برنارد لويس إلى مكون آخر من مكونات العداء لأمريكا تحت عنوان "الشيطان والسوفيت".

فهو يقر بأولوية المسألة الفلسطينية كمكون لظاهرة العداء ضد أمريكا في العالم الإسلامي، ولكنه يحاجج بأن العرب والمسلمين تعاطفوا مع النازي بالرغم من أن النازية هي التي قادت إلى قيام إسرائيل كحل للمسألة اليهودية.

ويحاجج أيضاً بأن الاتحاد السوفيتي الذي تحالفت معه النظم القومية وفتحت أراضيها لقواعده هو الذي لعب الدور الأهم في قيام إسرائيل، حيث إنه هو الذي حشد الأغلبية داخل الجمعية العامة للأمم المتحدة للتصويت لإقامة دولة يهودية في فلسطين، واعترف بها فور إعلانها في حين أن الولايات المتحدة ظلت مترددة وظلت تفرض الحظر على توريد السلاح لإسرائيل بينما كان الاتحاد السوفيتي عبر تشيكوسلوفاكيا أمد إسرائيل بالتسليح اللازم لبقائها، كما أن الولايات المتحدة ظلت تتبنى تعاملاً حذراً ومحدوداً مع إسرائيل في العقد الأول من قيامها، وهي التي بادرت لإجبار إسرائيل وفرنسا وبريطانيا للانسحاب من سيناء المصرية بعد حرب السويس عام ١٩٥٦. وكانت فرنسا هي التي ساعدت إسرائيل في إقامة برنامجها النووي. كما كانت فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية هي المصدر الرئيس لتسليح إسرائيل حتى حرب ١٩٦٧م، وليست الولايات المتحدة. وبرغم ذلك قوبل الاتحاد السوفيتي بالصداقة وبفتح البلدان العربية لقواعده العسكرية، بينما كان نصيب أمريكا الكراهية والعداء من العرب والمسلمين والسبب - كما يقول لويس- ليس فقط بسبب انحياز أمريكا لإسرائيل أو المطامع الأمريكية، وإنما توافق النظم العربية مع النظام الستاليني، وتعارضها مع ما تمثله أمريكا، ولكن تلك النظم بعد هزيمة الاتحاد السوفيتي والهزائم التي تعرضت لها عسكرياً والفشل الذي منيت به اقتصادياً تحالفت مع أمريكا.

وفي الفصل السادس: وتحت عنوان "المعايير المزدوجة"، يكشف برنارد لويس عن أن أحد مكونات الغضب الإسلامي ضد أمريكا هو تحالفها مع نظم قمعية في العالم الإسلامي (كانت فيما سبق ستالينية)، ويركز على أن مأزق أمريكا هو اقامها بالتحالف مع حكام

مستبدين ثم اقامها بالإمبريالية إن تدخلت من أجل تغيير النظم الاستبدادية في الشرق الأوسط مثلما حدث مع تغيير نظام صدام. وفي الفصل السابع: وتحت عنوان "فشل الحداثة" يرصد برنارد لويس مكوناً آخر للغضب الإسلامي ضد أمريكا وهو "الحداثة الفاشلة" في العالم الإسلامي حيث يرجع الإسلاميون أسباب تخلف وضعف المسلمين إلى أمريكا بدعوى تدخلها في شئون بلادهم وإعاقتها لعودة الإسلام كنمط للحياة وكنظام سياسي واقتصادي واجتماعي، وفي الفصل الثامن: يركز برنارد لويس على التزاوج بين الأصولية والثروة البترولية في دول الخليج، كأحد مكونات الغضب الإسلامي وتوجيهه إلى أمريكا عبر تنظيم القاعدة بزعامة بن لادن.

صعود الإرهـــاب:

في الفصل التاسع والأخير من كتابه "أزمة الإسلام" حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس يستخلص برنارد لويس أن "معظم المسلمين ليسوا أصوليين ومعظم الأصوليين ليسوا إرهابيين ولكن معظم الإرهابيين – في الوقت الحالي– هم مسلمون ويحددون هويتهم هكذا أي كمسلمين".

ومن المفهوم أن المسلمين يجضون بالشكوى حينما يصف الإعلام الحركات والأعمال الإرهابية بأنها إسلامية، ويسألون لماذا لا يصف الإعلام الأيرلنديين والباسك بأنهم إرهابيون مسيحيون؟

ويجيب لويس بأن أسامة بن لادن وأتباع تنظيم القاعدة، لا يعبرون عن الإسلام؛ بل إن تصريحاتهم وأعمالهم تتعارض مع مبادئ وتقاليد الإسلام وإذا كان يقال إنهم صعدوا من داخل الحضارة الإسلامية فإن النازيين صعدوا من داخل الحضارة المسيحية، ولكن أنصار بن لادن وسائر الإرهابيين الإسلاميين قد حددوا هويتهم بأنهم مسلمون وقدموا تبريراً دينياً لأعمالهم الإرهابية من نصوص القرآن والسنة النبوية، بانتقائية شديدة، وينهي برنارد لويس كتابه بأن الإرهابيين الإسلاميين والنظم المارقة، يحددون أمريكا في أنها تمثل زعامة دار الحرب، والشيطان الأكبر وتنشر نمط حياة نفعياً ومادياً ومنحلاً يمثل أكبر تهديد لنمط الحياة الإسلامي وللإسلام نفسه، وإذا اقتنع المسلمون بتلك النظرة فإن مستقبلاً مظلماً ينتظر العالم وخصوصاً الجزء الإسلامي منه.

فهل تحاربنا أمريكا لأنها تعتقد أننا نكرهها؟ إن برنارد لويس نفسه يكرر مـــراراً أن معظم المسلمين لا يكرهونها بل أقلية (إرهابية أو أصولية) منهم.

أم أن أمريكا تحاربنا حتى لا يكرهها بعضنا عندما يصل إلى نتيجة أنه لا سبيل إلى أن تتحول الكراهية إلى انتقام كما حدث في ١١ سبتمبر؛ لأن أمريكا تحارب من يكرهها مثل بن لادن وصدام حسين؟

إن حروب أمريكا ضد الدول المارقة والتنظيمات الإرهابية لـــن تنتـــهي الكراهيـــة والعداء لها بين بعض المسلمين والغضب من سياستها عند معظم المسلمين وليس من شك في أن نار الغضب الإسلامي ضد أمريكا يؤججها غياب حل للمسألة الفلسطينية.

ولكن برنارد لويس يستنسخ كتاباته السابقة في الصراع بـــين الإســـلام والغـــرب بتبسيط مخل برغم أستاذيته، وبتعميم فج برغم وعده منذ السطر الأول في الفصل الأول بتجنب التعميم حول الإسلام وهو وإن حاول التمييز داخل الإسلام بين أقلية أصـــولية وإرهابية وغالبية المسلمين، إلا أنه عندما تحدث عن العرب كان يميزه بالإسلام كنقيض له ليصبح الإسلام كتلة واحدة في مواجهة الغرب ككتلة أخرى، وليصبح حديثـــه مثـــل متطرفي إدارة بوش عندما يقولون نحن وهم، ومن ليس معنا فهو ضدنا.

وربما يرجع التبسيط والتعميم إلى أن الكتاب هو تجميع لعدد من المقـــالات كتبـــت تحت ضغط الأحداث ونشرت في مجالات "فورين أفـــيرز" و "اتلانتـــك ماشـــتي" و "ذا نيويوركر" لإشباع فهم القارئ الأمريكي بعد أحداث ١١ سبتمبر وحرب أفغانـــستان وقبيل حرب العراق.

لن ترضى مقلدي إدوارد سعيد بتبخيس برنارد لويس بيهوديته عندما قلل من دور مسألة إسرائيل كمكون للغضب الإسلامي، ولكنه كان محقاً في القول إن إلقاء مسئولية فشل وضعف وتخلف المسلمين على أمريكا وإسرائيل لا يعفي المسلمين من مسئوليتهم بل وقاد بعضهم إلى الهجمات الانتحارية ضد أمريكا في ١١ سبتمبر. غير أن أســـوأ مـــا في كتاب "أزمة الإسلام" هو إضفاء صفات سرمدية على المسلمين مثل النظـــر إلى الآخـــر باعتباره كافراً، والافتتان بالاستبدادية والنازية، وكراهية أمريكا لما تمثله من نمط حيـــاة وقيم، وتبني الحرب الدينية، وإن كان بعضنا يتبنى تلك الأفكار والممارسات.

يبقى أفضل ما في الكتاب هو إرجاع أصول البعثية والصدامية والقومية العربية الاستبدادية عموماً إلى النازية والستالينية، وليس إلى الثقافة الغربية أو الإسلام.

وخلاصة القول في الرؤية الموضوعية الدقيقة لعالمنا المعاصر، ينبغي أن تسلحنا بالوعي والبصيرة، وأن الظلم والظلام الذي يغطي سماءنا العربية والإسلامية من الخلف الأمريكي الصهيوني، ينبغي ألا يغلق قلوبنا عن العدل مع أنفسنا، وينبغي ألا يغلق عقولنا عن تصحيح أوضاعنا، والحرية والعدل خير سلاح يزيل الظلم والظلام الذي يغطي سماءنا والحرية خير ضمان للدفاع عن كياننا، والقول بأن "الإصلاح ينبغي أن يأتي من الداخل ولا يفرض من الخارج "قول صحيح". والقول بأن "الخلف الأمريكي الصهيوني لا يريد لنا الإصلاح" قول حق، ولكن الإصلاح مجردا.. الإصلاح في حد ذاته ضالتنا وحاجتنا وضرورتنا. وقد أصبح الآن ضرورة وجود وبقاء، قبل أن نخرج من السياق العالمي المعاصر.